الإمامة العامة
العتبة الحسينية المقدسة
موسسة الخالق العظيم
١٦٥٧

رواية

الرمق الأخير

رياض المولى

الرواية الفائزة بـ (جائزة الرواية العربية/ الدورة الأولى)



الإشراف العلمي
اللجنة العلمية في مؤسسة الخالق العظيم
الإصدار ٤٠

الرمق الأخير

رواية



رواية

الرمق الأخير

رياض المولى

بطاقة الفهرسة

PJ7946.A953 R3 2025

المولى، رياض، ١٩٧٣- - مؤلف.

رواية الرمق الأخير/ تأليف رياض المولى. - الطبعة الاولى.

- النجف، العراق: العتبة الحسينية المقدسة، مؤسسة الخلق العظيم، ٢٠٢٥/ ١٤٤٧ للهجرة.

١٤٨ صفحة؛ ٢٤ سم. - (العتبة الحسينية المقدسة ؛ ١٦٥٧)، (مؤسسة الخلق العظيم؛).

١. القصص العربية - العراق- قرن ٢١. ٢. القصص الأخلاقية. أ. العنوان.

تمت الفهرسة قبل النشر في شعبة نظم المعلومات التابعة لقسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة.

ISBN: 978-9922-753-89-4

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

(٣٤٩٥) لسنة (٢٠٢٥)

هوية الكتاب

الرمق الأخير

المؤلف: رياض المولى.

الصنف: رواية

الطبعة: الأولى

سنة الطبع: ٢٠٢٥م

دار الطبع: مطبعة دار الوارث.

إشراف ومراجعة: اللجنة العلمية في مؤسسة الخلق العظيم.

الناشر: العتبة الحسينية المقدسة .

تقويم النص و التدقيق اللغوي . مؤسسة الخلق العظيم .

المخرج الطباعي: السيد مرتضى حسين الهاشمي.

تصميم الغلاف: مرتضى ماجد الدالي .

اللجنة العلمية

الشيخ صباح الساعدي

د. السيد زيد البطاط

د. حاتم البخاتي

الشيخ غانم الجبوري





جميع الحقوق محفوظة
للعتبة الحسينية المقدسة

الطبعة الأولى

١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م



إصدار
مؤسسة الخلق العظيم

كلمة المؤسسة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلواته الزاكيات على نبيه الكريم الموصوف بالخلق العظيم، محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

أما بعد، فبما أنّ للأدب بالغ الأثر في نفوس مخاطبيه، وأن عشاقه الذين انبهروا بهذا اللون من الكتابة هم من مختلف الفئات والأعمار والمستويات، فقد رأت مؤسسة الخلق العظيم للدراسات الأخلاقية ـ وفي صدد اتباع السبل المؤثرة لنشر القيم الأخلاقية وترسيخها في المجتمع العربي ـ أن من اللازم توظيف هذا النمط المؤثر من الكتابة، فتبلور عن ذلك مشروع الأدب الأخلاقي والذي يعمل في المجالين التاليين:

الأول: الشعر؛ حيث عمدت المؤسسة إلى توظيف الأشعار الهادفة ذات المضامين الأخلاقيّة المؤثرة، وذلك عن طريقين؛ هما:

أ) إعداد موسوعة ألفبائيّة للأشعار الأخلاقيّة، حيث تبوّب الأشعار ـ وفق العناوين الأخلاقيّة المتضمنة فيها ـ في ترتيب ألفبائي، لتكون رافداً مهمّاً للباحثين والخطباء وهواة الشعر والأدب.

ب) كتابة الشعر الأخلاقي في الأحداث المعاصرة؛ فتتم دعوة الشعراء والأدباء واستكتابهم لتسليط الضوء على الفضائل الخُلقيّة

والظواهر الاجتماعيّة الإيجابيّة بغية دعمها وترويجها، ونقد الظواهر الاجتماعيّة والأخلاقية السلبيّة ومواجهتها.

الثاني: الرواية السردية؛ ويتمّ العمل فيه على تأليف روايات ذات مضامين أخلاقية يكون المستهدف فيها فئات الأطفال والناشئة والشباب، من خلال صياغة المفاهيم الأخلاقيّة، أو كتابة القصص الأخلاقية المأثورة عن المعصومين والعلماء والعظماء، بأسلوب روائي معاصر متناسب مع الفئات المستهدفة.

وفي ضوء ذلك فقد أُطلقت مسابقة الرواية العربية والتي تهدف إلى دعم المشهد الثقافي والأدبي في الساحة العربية، ليتحقق من خلال ذلك نشر القيم والمبادئ الأخلاقية النبيلة، وقد لاقت إقبالا واسعا من قبل الأدباء المحترمين في العراق والوطن العربي، وشارك في نسختها الأولى من مختلف البلدان العربية، إذ استقبلت المؤسسة مشاركات واسعة من خمسة عشر بلد عربي، وبالتسلسل التالي:

١ـ مصر العربية: ١٠٦ مائة وستة رواية.

٢ـ العراق: ٤٥ خمسة وأربعون رواية.

٣ـ الجزائر: ٤٥ خمسة وأربعون رواية.

٤ـ المغرب العربي: ٢٨ ثمانية وعشرون رواية.

٥ـ سوريا: ١٣ ثلاثة عشر رواية.

٦ـ تونس: ١٠ عشرة روايات.

٧ـ اليمن: ٩ تسع روايات.

٨ـ لبنان: ٥ خمس روايات

٩ـ السودان: ٣ ثلاث روايات.

١٠ـ البحرين: ٣ ثلاث روايات.

١١ـ ليبيا: ٢ روايتان.

١٢ـ الأردن: ٢ روايتان.

١٣ـ الكويت: ١ رواية واحدة.

١٤ـ فلسطين: ١ رواية واحدة

١٥ـ الصومال: ١ رواية واحدة.

وبما أن المسابقة كانت موزعة على فئتين من الكتّاب: كبار الكتاب، وفئة الشباب، فقد كان النصيب الأوفر للروايات الواردة من قبل الفئة الأولى؛ إذ بلغ عددها مائة وستة وثمانين رواية، فيما بلغ عدد الروايات الواردة من قبل فئة الشباب ثمانية وثمانين رواية.

ونتيجة للآليات المتبعة في وضع الضوابط والشروط المقررة من قبل اللجان القائمة على المسابقة، فقد تم اختيار الروايات التي حظيت بالفوز من بين الروايات المنافسة والكثيرة في ضوء المعايير الأدبية والفنية وغيرها من الشروط التي أُعلن عنها في الجائزة.

وقد حازت الرواية الماثلة بين يدي القارئ الكريم المرتبة الثانية من فئة كبار الكتاب، والتي سلط كاتبها الضوء فيها على موضوعة غاية في الأهمية، ألا وهي قصة رجل يعيش آخر لحظات حياته في معركته ضد الإرهاب الداعشي وقد عادت به الذكريات لتستدعي معاناته منذ

طفولته إلى هذه اللحظة التي يعيشها ليبين لنا أن هذه المعاناة تمثل معاناة شعب بأكمله إبان الحكم البعثي الجائر وما تلاه من هجمات شرسة ضد الشعب العراقي..

ونحن بدورنا إذ نثمن هذا المجهود المبارك الذي قدمه الأستاذ رياض المولى المحترم ندعو الله العلي القدير أن يوفقه للمزيد من العلم والعمل الصالح.

كما نتقدم بالشكر الجزيل للإخوة الأفاضل في اللجان العاملة على هذه المسابقة القيمة، وأخص بالذكر: الروائي السيد نعيم آل مسافر المحترم، والأخ الدكتور علي كاظم داوود المحترم، والأخ الدكتور عباس فاضل عبد الله المحترم، والأخ الدكتور نعيم خماس جبر المحترم، والأخ الدكتور مهدي عيسى البطاط المحترم، والأخ الدكتور ناصر الجابري المحترم.

وكذلك الإخوة في اللجان التنظيمية: الأستاذ حيدر عبد الهادي حسن المحترم، والأستاذ السيد مقداد جاسم الغرابي المحترم، والأستاذ محمد ماجد هاشم المحترم، والأستاذ السيد محمد علي أمجد حميد المحترم، والأستاذ محمد حسين علي محمد رضا المحترم، والأستاذ منتظر زيد كامل المحترم، والأستاذ أمير أبو الزين المحترم.

وفي الختام أعرب عن عرفاني وامتناني لسماحة المتولي الشرعي للعتبة الحسينية المقدسة العلامة الشيخ عبد المهدي الكربلائي (دامت بركاته) على رعايته الأبوية للمؤسسة ومشاريعها ودعمه المتواصل لهذا المشروع

وبقية المشاريع الأخرى فيها، وكذلك جناب السيد الأمين العام للعتبة الحسينية المقدسة جناب الحاج حسن رشيد جواد العبايجي (دامت توفيقاته) على حرصه وحضوره الفاعل في هذا النشاط المبارك، كما أتقدم بالشكر للإخوة الذين ساهموا في الإشراف والمراجعة الفكرية والتدقيق اللغوي، وأخص بالذكر: الدكتور السيد حاتم البخاتي، والدكتور السيد زيد البطاط، وجناب الشيخ غانم الجبوري، وجناب السيد قتاد الحسيني، سائلا المولى عز وجل أن ينفع بهذا العمل الذي قدموه وأن يأخذ بأيديهم لما فيه خير وصلاح.

والحمد لله رب العالمين.

الشيخ صباح الساعدي

مدير مؤسسة الخلق العظيم

١٦ شوال ١٤٤٦هـ

١٥/ ٤/ ٢٠٢٥م

كانت الرصاصات تتوالى نحوي بشكل مستمر وقريب جدا، وأزيزها يصم الآذان، محتميا بذلك العمود أو الأسطوانة الاسمنتية الدائرية التي أصبحت مثل ترس لأتفادى رصاص القناص الذي تربص بي وكأنه يطلبني ثأرا، كان يستهدفني بشكل صريح وملح ويبدو أنه أقسم أن يصيبني برصاصاته المسمومة، لكي يزف الخبر لأميره الذي كلّفه بقتل الروافض.

محيط الأسطوانة الاسمنتية لم تعطني مساحة كافية لألقم بندقيتي وألقن ذلك الداعشي مرارة رصاصاتي، وأي خطأ أو ظهور لأي جزء من جسدي يعني إصابته وتهشيمه، لقد بدا الأمر محرجا وخطرا لا سيما بعد أن تأخر الإسناد كثيرا. أنظر إلى رفيقيّ اللذَين استشهدا داخل هيكل البيت بعد اشتباكهم مع داعشي كان متواريا في إحدى الغرف، فاضطررت إلى سحبهم من الداخل لأخليهم إلى موقعي المتقدم، لكن القناص لم يعطني الفرصة وأخذ يرشقني بين حين وآخر برصاصاته عسى أن يصيبني لينقض عليّ فيما بعد.

استمر الوضع الحرج ثلاث ساعات والقناص الداعشي ينتظر لحظة الضعف المنتظرة مني لكي أسقط من شدة التعب أو العطش أو الحرارة، عندها سيسدد ضربته القاضية نحوي ويرحل. وفعلا بدأت أشعر بتعب شديد وتشنج في عضلات ساقيّ بسبب الوقوف الطويل، فضلا عن حرارة الجو العالية وفقداني الكثير من السوائل، الأمر الذي قد يؤدي الى إغمائي في أي لحظة.

بدأت إشارات الموت تظهر أمامي، فإحساسي المتفاقم بدنو أجلي سيطر على حواسي وخدّرها، فأصبحت في وضع اليائس من تكملة مشوار الحياة، وتجّلت الشهادة أمامي كعروس بارعة الجمال وهي تدعوني إليها بيد ناصعة تشع نورا، العرق المتصبب من رأسي وجبيني حجب عني رؤية المكان الذي يحيط بي، وشعرت بحرقة شديدة في عيني بسبب ذلك العرق المالح.

رفعت بصري إلى الأفق الترابي البعيد بتلاله المنخفضة والمصطبغة بلون التراب والدخان، وحركة السراب البعيدة تتراقص بسبب الحرارة العالية، لم ألمح أي فرد من جماعتي أو مجموعة الإسناد التي تأخرت، الانتظار ليس بصالحي وطول المكوث ربما يشجع الدواعش على التقدم لاحتلال هيكل البيت الذي أحتمي خلف أعمدته الاسمنتية، لا سيما وأن أزيز رصاص القناص قد توقف، لكنها حركة مباغتة من قبل ذلك الداعشي ليبث الاطمئنان لي فيدفعني للخروج من محيط الأسطوانة ليلتقطني بقناصه.

لم يغرني سكون القناص وسكوت بندقيته، بل احتفظت بصلابتي وآثرت عدم التحرك رغم الآلام الشديدة التي دبت في أوصالي، وجفاف جسدي المتعطش لشربة ماء، زمزميتي لم يتبق فيها سوى القليل، بلّلت شفاهي بما تبقى منها من ماء، وشبح العروس يظهر ويختفي بين حين وآخر وهي تمد لي يدها، الشهادة في سبيل الوطن والدفاع عنه هي مقام عال جدا، لكن زوجتي وطفلتي الوحيدة كانتا

تقفان حائلا بيني وبين العروس، كان وجه زوجتي متكدرا وحزينا، أما ابنتي فقد كانت تنظر نحوي بعينين راجيتين، وهي تمسك بلعبتها بيد ويدها الأخرى تمسك سبابة أمها.

هززت رأسي بقوة وكأني أنفض عنه الغبار، لأبعد عني ذلك المنظر ولتتضح أمامي صورة الواقع الذي يحيط بي، فأنا في فك كماشة لا سبيل من الفكاك منها إلا بقدرة قادر. جرّبت أن أخرج أخمص بندقيتي من محيط الأسطوانة عسى أن يستفز هذا الفعل القناص الرابض، لأتأكد من وجوده أو عدمه، فالوضع أصبح لا يطاق وطاقتي بدأت تنفد وظلال الموت سقطت على جسدي أكثر من مرة.

صوت انفجار الأخمص جعلني أميل إلى الجهة الأخرى، حتى جاءتني رصاصة لاحقة مزقت لحم كتفي الأيسر، وتشظي الخشب بوجهي أصابني بجروح في وجهي ورقبتي، كانت شظايا الخشب الصغيرة المغروسة في اللحم مؤلمة جدا، رغم الإصابة الأخرى التي هتكت سطح جلد الكتف، لكنها لم تكن إصابة قوية بل كانت شدخا، لكنه تسبب بنزيف لم ينقطع إلا بصعوبة رغم ما أعانيه من جفاف. فبدأت أتخلص من الخشب النابت في وجهي ورقبتي ومع كل شظية استخرجها أشعر بألم حارق ودم متدفق امتزج بشظايا الخشب التي استخرجتها.

زادت حالتي سوءا وسط الحرارة والجفاف والدماء المتيبسة على وجهي وملابسي، وآلام الجسد المنهك والضعف الناتج من الوقوف

الطويل، كان الداعشي مستمتعا بذلك المنظر الذي أمامه، كان يتلذذ بتعذيبي وهو يمطرني برصاصاته الخبيثة بين حين وآخر، وكأنه يتعمد إبقائي حيا لكي أتعذب بهذا الشكل البشع. فالوقت الذي تحمله هو طيلة تلك الفترة القاسية ورغم حرارة الجو إلا إنه لم ييأس مني ولم يتح لي الفرصة لمواجهته أو الانسحاب من ذلك الموقع. فجأة سمعت صوتاً قريبا مني ومن جهة اليمين، التفت بحركة غريزية نحو جهة الصوت حتى باغتتني رصاصة هشمت حافة العمود الاسمنتي وتشظّت بعيني اليمنى وكأني رأيت شررا عظيما يخرج منها.

الفصل الأول

شرر النار الذي كان يتصاعد من تنور أمي الطيني هو متعتي الوحيدة حينما كنت أربض على صفيحة سمنة فارغة، لا سيما عند وقت الغروب، فالمنظر سيكون أخاذا ومدهشا، وصوت تكّسر سعف النخل بفعل النار يؤنسني كثيرا.

كانت أمي منهكة في شوي الخبز في ذلك التنور الطيني بعد أن فرغت من تحضير العجينة اللازمة، لتطعمنا نحن أبناءها الأربعة وبناتها الثلاث، أما والدي فقد كان مستلقيا على كنبة خشبية وهو يستمع لنشرة أخبار البي بي سي من راديو ماركة ناشيونال، كان يعمل حارسا في إحدى مدراس بغداد ويتقاضى راتبا متواضعا، ولهذا كان الفقر يلفنا من كل جانب، وطعامنا كان بائسا واقتصر على الخبز والبصل والطماطم، وفي بعض الأحيان تطبخ أمي مرقا خاليا من اللحم. ورغم ذلك كنا منخرطين في الدراسة ولم يتسرب أحد منا من مدرسته، وإلا فالويل له من عقوبة الوالد، حيث كان حريصا على إكمال دراستنا والحصول على الشهادة من أجل التوظيف وتفادي الوقوع في وحل الضياع والتشتت.

كان أخي الكبير جنديا في الجبهة، فنار الحرب المشتعلة بيننا وبين الجانب الإيراني وصلت إلى الذروة وهي تحرق دون هوادة الأخضر مع

اليابس، ودماء الشباب تسيل دون توقف على منحر الشريط الحدودي الطويل.

كانت أمي دائمة الحزن طالما أخي ملتحقاً بالجبهة، فهي تخشى أن يأتيها ملفوفا بالعلم، وكلما حصل هجوم كبير على قطعات الجيش تتكدر وتنوح وكأنها تهيئ نفسها لفاجعة متوقعة، أما أبي فكان حزنه مكتوما وهو يزم بشفتيه قلقا، وكثيرا ما كان يضرب بكفه على فخذه دون شعور، كلما سمع خبرا مفجعا أو هجوما كبيرا قد حصل.

أما أنا فقد كنت أتلظى بين هذه النيران، نيران القلق والخوف من استشهاد أخي، أو وقوع الفاجعة على والدتي التي قد تموت من ألم تلك الفجيعة، طفولتي كانت مضطربة وحياتي أشبه بقطعة صغيرة من المأساة، ففضلا عن فقر حالنا وتردي وضعنا الاقتصادي فنحن في دوامة من القلق والخوف، والوضع العام لا يبشر بخير، فالمجهول يحوطنا من جميع الجوانب، وهذا كان حال أغلب حياة العراقيين، فمنذ أن استلم صدام حسين مقاليد الحكم الفعلي حتى تحول كل المجتمع إلى معسكر كبير يخدم النظام وجلاوزته. حتى نحن الصغار لم نفلت من تلك العسكرة، فعمد النظام إلى إجبارنا على الانخراط في تشكيلات الطلائع التي انتشرت في المدارس الابتدائية، وكأنه يهيئ جيل الأطفال إلى جنود مستقبليين يحارب بهم أعداءَه الذين يتصور وجودهم في خيالاته المريضة.

لم أكن متفوقا بدراستي، لكنني كنت أنجح وأعبر مراحلي الدراسية بسلاسة وبدرجات متوسطة، رغم الصعلكة التي أمارسها مع رفاقي في المدرسة، حيث كنا نترك الدرس الأخير ونهرب من المدرسة لنتسكع في الأحياء المجاورة أو نذهب إلى البستان القريب من منطقتنا، نقطف ثمار النارنج والرمان ونصيد العصافير والحمام. كان هذا التسكع هوايتي المفضلة حتى وقع المحذور وأقسمت ألا أذهب إلى البستان مرة أخرى، حيث ظهر لنا فلاح عجوز لكنه نشط وقوي البنية رغم قصره، وراح يسب ويشتم بنا بسبب انتهاكنا لأرض البستان وقطف الثمار، كان يحمل بيده مقلاعا ألقمه حجرا صلدا وراح يهزه بقوة وأطلقه نحونا حينما كنا نركض هاربين باتجاه بوابة البستان الرئيسة، لكن الحجر جاء بشكل مباشر على قفا رأسي وطرحني أرضا، لم أشعر بشيء حيث فقدت الوعي، أما زملائي الآخرون فقد تمكنوا من الهرب.

طالت غيبوبتي حتى أفقت أخيرا، فوجدت نفسي في حجرة صغيرة بُنية من صفائح السمنة الممتلئة بالطين، وكان سقفها من أعمدة الخشب تعلوها الحصران، كان الجو خانقا بالداخل ووجه الرجل العجوز يتفرس بي، شعيراته البيضاء الناتئة في وجهه كانت علامته المميزة، نظر نحوي بعينين صغيرتين وكأنه يطمئن على وضعي بعد تلك الإصابة الدقيقة التي وجهها نحوي، وجهه الأسمر المتعرق بدا قلقا، وراح يشمر يشماغه المتسخ على قمة رأسه وهو يحاول مساعدتي في النهوض

وهو يتكلم معاتبا عن انتهاكنا لبستانه، كنت مشّوشا وأشعر بصداع قوي، لكن لم يكن هناك أثرٌ لدم، وهو ما أراحه كثيرا، لكنه مسح وجهي بيده المتخشبة، وأعطاني شربة ماء من ذلك الكوز المركون في زاوية الكوخ.

خرج العجوز من الكوخ بعد أن طرحني أرضا على حصيرة منسوجة من الصوف، غاب وقتا طويلا ثم جاء محملا بسلة مملوءة بالثمار، ودفعها لي وقال بصوت مرتجف:

- خذ هذه الفاكهة يا ولد، وهذا تعويض لأصابتك...

- شكرا يا حاج...

- لكن إياك أن تخطي عتبة البستان مرة أخرى، فأنا لست إلا فلاحا والأرض تعود لمالكها الحاج عبد الرزاق...

- فهمت، وأعدك بأنني سوف لن أجتاز عتبة البستان، لكن رأسي يؤلمني ولا أستطيع المغادرة، فجسدي يرتعش وأشعر بدوار.

- لك أن ترتاح قليلا هنا، وتناول هذه الفاكهة عسى أن تعينك على النهوض مرة أخرى....

بقيت فترة في ذلك الكوخ والعجوز يجلس قرب الباب قلقا وهو يراقبني بنظرات متفحصة، وكأنه نادم على ما فعله، أما أنا فقد أكلت نصف سلة الفواكه حتى أصبت بالتخمة، لكني شعرت بألم في بطني بسبب إفراطي بالأكل...

دخل وقت العصر وبدأت الرياح الباردة تضرب سعف النخيل الشاهقة، وتصفر في ثنايا الكوخ الطيني، بدأ البرد يتسلل إلى فرائصي التي أخذت ترتجف وكأني محموم، فقام العجوز ورمى عليّ بطانية قذرة ذات رائحة عطنة لتدفئتي، رفعت الغطاء ونهضت لأغادر المكان، لكن الدوار لم يفارقني والصداع يضرب رأسي بقوة. لم يسمح العجوز لي بالمغادرة، أما أنا فكنت مصرا؛ لأنني تأخرت على البيت، ووالدي إذا سمع بذلك فأنه سيعلقني في السقف، غادرت البستان مترنحا وأنا أقسم بيني وبين نفسي ألا أخطي بقدمي عتبة ذلك المكان مرة بسبب ما حصل لي.

* * *

قبل نهاية الحرب جاءوا بأخي الأكبر الذي سقط صريعا في إحدى معارك القاطع الأوسط، كانت فاجعة بكل المقاييس، أما أمي ففقدت صوابها وشارفت على الجنون، وقطّعت جسدها باللطم وخمش الخدود، كان يوما مأساويا بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، كنت أبكي بحرقة لبكاء الجميع، أبي الذي كان منهارا وهو ينوح على ولده الأكبر، أمي في حالة مزرية من الانهيار العصبي وفقدان السيطرة على نفسها بعد أن مزقت ملابسها وهي ترى تابوتا موشحا بالعلم مسجى أمامها، فالجميع كان في حالة من البكاء والصراخ والعويل والصخب.

كنت صغيرا على هذا المشهد ومقاسي العمري والنفسي والعقلي لا

يتناسب وحجم الكارثة التي ألمت ببيت عبد الواحد شاكر، ذلك الرجل الطيب المتواضع الذي يحاول العيش كيفما كان رغم الفقر والبؤس. كنت أصم أذنيّ بقوة بعد أن تصاعدت نبرة الصياح والعويل في البيت، خشية الانهيار الذي أحاطني وأطبق عليّ مثل كماشة، فغضاضة عودي ولين عريكتي سُحقت تحت عجلات الموقف الرهيب وحجم المصيبة التي وقعت علينا.

بقي ذلك المشهد مرافقا لمخيلتي لفترة طويلة لا سيما وأنا أراقب أمي الثكلى وهي تجلس في زاوية الدار تنوح على ولدها الشهيد، فعافت نفسها الزاد وتقوقعت على نفسها وأصبح النواح والبكاء متنفسها وخليلها، وهي تحتضن صورة ولدها، حتى ذبل عودها وأصفر لونها وتحولت إلى بقايا إنسان، كومة صغيرة من العظام ترتدي السواد من الأعلى إلى الأسفل تشغل تلك الزاوية من البيت. ولم نفلح نحن أبناؤها وبناتها بأن نقنعها أن تأكل شيئا أو تمارس حياتها بشكل طبيعي، حتى أبي المنكوب لم يفلح بذلك وكأنها تريد اللحاق بولدها البكر إلى قبره. فاضطررنا إلى إدخالها المشفى من أجل إنقاذها من موت محقق؛ لأنها أصبحت في حالة مزرية، وبدأت تنتابها نوبات من فقدان الوعي بسبب سوء التغذية والجفاف. تحسنت حالتها بعد أن رقدت أياما في تلك المشفى، وقد خضعت لعلاج مكثّف وتم تغذيتها بالسوائل الوريدية اللازمة وبعض العلاجات الأخرى.

استمر تأثير الفاجعة علينا طويلا، حتى بعد انتهاء الحرب وخروج الناس إلى الشوارع وهم يحتفلون بالانتصار المزعوم، انتصار بائس قام على جثث عشرات الآلاف من الشباب الذين قضوا نحبهم بمعارك خاسرة لا ناقة لنا فيها ولا جمل، زاد حقدي على النظام ورأسه، رغم صغر سني في ذلك الوقت؛ لأنهم تسببوا بقتل أخي وآذوا أمي بشكل وحشي، كان تفكيري منصبا على الانتقام من تلك الطغمة الباغية التي عبثت بنا طوال ثمان سنوات، مدفوعا بفورة الشباب المتحمس لإحداث تغيير مصحوبٍ بهاجس الانتقام لأخي وأمي من هؤلاء. كان تفكيرا كبيرا لا يناسب قدراتي الذاتية العقلية والنفسية، فالفرد المستضعف لا يساوي جناح بعوضة أمام ذلك المارد الكبير الذي اسمه النظام.

لكنها كانت صرخة داخلية لم تجد لها منفذا إلى الخارج، وكأنها صرخة نملة لا أحد يلتفت إلى صراخها، ولا أحد يسمعها أصلا، فكنت كمن يصرخ ببئر لا أحد يسمع صداه سواي، لكنه على أية حال كان متنفسا ذاتيا لم يشعر به حتى القريبين مني، فالخوف متفشٍ في النفوس كالوباء، كون سطوة النظام مطبقة على كل شيء بهيمنة جبارة تدعس كل من يقف بوجهها كحشرة صغيرة.

تعثّرت بدراستي بسبب ما ألمّ بنا نحن بيت عبد الواحد، حيث فقدت الشغف في مواصلة الدراسة وفي داخلي ما تزال جذوة الحقد والثأر تجاه النظام، وكلما رأيت مركبة عسكرية أو شخصا يرتدي

الزيتوني أشعر بغليان وغضب ولو كان بيدي لرشقتهم بالسلاح لكي أطفأ جزءا من النار التي تأججت ببيتنا، أو لأبرِّد قلب أمي الذي ما زال ملتهبا، لكن قدراتي لم تكن تسعفني وأشعر أنني مقصوص الجناح وحيداً في ميدان أجهل أرضه، فلا معين ولا سند ولا رفيق ولا حتى قائد ممكن أن يدلني على طريق يفضي بي إلى بقعة من ضوء أستكشف خلالها ما يدور حولي.

تركت الدراسة مرغما رغم ممانعة الجميع؛ لأن المزاج لم يكن يتقبل الجلوس على مقاعد الدراسة وأمامي تلك الصورة التي تسبب صاحبها بمأساتنا وضياعنا، والذي ترك صبغته السوداء على حياتنا وحوّل بيتنا إلى مناحة طال أمدها، وسلب منا كبير العائلة وفلذة كبد أمي المفجوعة.

كان تمردا واضحا على كل شيء، ولم تفلح تهديدات والدي وتوسل إخواني بالرجوع إلى الدراسة، لكني كنت مقفلا كباب حديدي صلد، حيث قطعت على نفسي عهدا بأني سأبتر أي صلة تصلني بالنظام ومنظومته الحكومية، لا سيما وأن رفاق الحزب من الكادر التدريسي بدؤوا في ممارساتهم الدنيئة في كسبنا إلى صفوف الحزب. وهذا ما أجج بي شرارة الرفض ومواصلة التماهي مع تلك المنظومة الكريهة، فكانت الخطوة الأولى هي الانقطاع من الدراسة لقطع ذلك الحبل الذي يحاول جري إلى مستنقع الحزب.

اضطربت حياتي بعد سلسلة القرارات السريعة تلك، والتي نبعت

من قناعة صبي لم يصل بعد إلى سن الرشد، رغم نصائح الأكبر مني سنا، لا سيما والدي وأعمامي، وكذلك خالي الوحيد الذي كان قريبا منا كعائلة، شاب ثلاثيني لم يتزوج بعد لكنه منفتح العقل وذو ثقافة واسعة، أكمل دراسته في كلية الآداب قسم الفلسفة، ويعمل مدرسا في إحدى ثانويات بغداد، ولهذا كان يفلسف الأمور حسب رؤيته الشخصية التي استمدها من خلال دراسته الطويلة وتعمقه في ذلك المجال الصعب.

كنا نجلس سوية لفترات طويلة، أستمع إليه منبهرا بغزارة معلوماته وتوّسع مداركه وآرائه السديدة الموزونة، لكنه كان يفصح بين حين وآخر بميله إلى الأفكار الحرة، وذكر أكثر من مرة إعجابه بالفكر الماركسي وقناعته بمبادئ الحزب الشيوعي، لكنه كان متحفظا بشدة على ما كان يكتمه من ميول فكرية لخطورة ذلك.

لم أفهم صراحة الخطورة التي تترتب على تلك الأفكار، فهي مجرد أفكار وجدتها مثالية وكأنها دعوة نبي أو وصي. فلماذا الخوف من البوح؟ سؤال توجهت به إلى خالي الذي كان يجلس على الكنبة في غرفة الضيوف، مرتديا بجامته البازة، متلفعا بروب من الصوف ممسكا كتابا يتحدث عن الاقتصاد. فرد وهو يدعس عقب سيجارته في قعر المنفضة القريبة منه، أطبق الكتاب ونظر نحوي بعينيه الجاذبتين، وخصلات من شعره الأسود تنساب على عينيه، فكان يزيحها من حين لآخر، وبدا لي وكأنه شاب هوليوودي جذاب:

- كل فكر لا ينسجم مع فكر حزب البعث يصبح محظورا...

- ولماذا لا ينسجم مع فكر الحزب؟

- كل حزب له نظرياته وآراؤه وتطبيقاته، فالتوجهات تختلف وطريقة التعاطي مع الواقع متباينة، فإذا كان حزب البعث يؤمن بعسكرة المجتمع، فالحزب الشيوعي لا يحبذ ذلك، وهذا أبسط اختلاف... ثم إن الحزب الشيوعي منفتح على جميع الآراء ويخلو من الدكتاتورية، وهذا لا نراه في الحزب الآخر، والنظام السياسي بالعراق لا يؤمن بالتعددية الحزبية؛ لأنه نظام شمولي....

- ماذا تقصد بالنظام الشمولي؟

- هو نظام تعتمده الدولة للسيطرة على كل المقدرات، الشعبية والمؤسساتية، وهدفه السيطرة والتحكم بالجميع وبالقوة، وهو خلاف الأنظمة الديمقراطية.

- إذن نظامنا شمولي!! وهذا ما بدأت ألمسه من خلال فهمي للواقع...

- لكن احذر أن تبوح بأفكارك هذه، لأن السلطة تحاسب بشدة من يتبنى مثل هذه الأفكار، وتعدها تحديا لها، ومصير التحدي هذا هو الإعدام.

- وهل تحتفظ بأفكارك وعدم البوح بها خوفا من بطش السلطة؟

- أكيد طبعا؛ لأن الحزب الشيوعي مُني بخسارات فادحة في نهاية

السبعينات وتم تصفية قياداته وعناصره الفاعلة، وهرب آخرون خارج العراق خوفا من التصفية.

- هل الحزب خطر على السلطة إلى هذه الدرجة؟

- نعم، السلطة تعتبره خطرا؛ لأنه تفوّق على أفكار حزبها الحاكم، ولهذا السبب تحاول إقصاء أي فكر عن طريقها مهما كان لتنفرد هي بالسلطة؛ لأن من وجهة نظرها إن تعدد الأحزاب يضعف الحزب الحاكم وربما يقصيه عن الحكم.

- وكيف جاءتك فكرة تبني فكر الحزب الشيوعي؟

- من خلال دراستي للفلسفة، لقد تعرفت على التيارات الفلسفية كلها تقريبا، ودرست مناهج الفلاسفة مثل كانت وهيجل ونيتشة وشوبنهاور وكذلك ديكارت وفولتير وجان جاك روسو وسارتر....

- هذه الأسماء لم أسمع بها من قبل؟

- بكل تأكيد؛ لأنك لم تدرس الفلسفة...

- لا أدري... أشعر أنني تسرعت بتركي المدرسة، ويبدو أن تحصيل العلم قد يزيل عني الغموض الذي يحوطني من كل جانب...

- العلم يضعك على الطريق الصحيح، وينير لك دربك ويساعدك على اتخاذ قرارات مصيرية، ثم إنه سلاح في وجه الجهل والظلم.

- وهل تنصحني بالرجوع إلى المدرسة؟!

- نعم، أنصحك بذلك وأن تسعى لهذا الأمر، فالطبقة المثقفة هي من تستطيع أن تقف بوجه ظلم السلطة وتشّخص عيوبها...

- لكن المدرسة جزء من منظومة السلطة، لا سيما وأنهم يجبروننا على الانتماء إلى حزب البعث...

- اجعل من المدرسة مصدرا للعلم ولا تأبه لمحاولات الانتماء إلى الحزب..

- أقول لك: إنهم يحاولون إجبارنا على ذلك...!

- الإنسان الحر لا يُجبر على شيء غير مقتنع به، فإذا كنت مقتنعا بعدم الانتماء لا تنتم.

- فيها مخاطرة كبيرة عليّ وعلى عائلتي...

- ابق مصرا على ركوب المخاطرة ولا تفعل أشياء أنت غير مقتنع بها....

- كلامك كبير على قدراتي الذاتية...

- عليك الإيمان بقدراتك الذاتية، وتسلح بقوة الثقة بالنفس، فالإصرار يصنع القوة الشخصية...

- لا أدي، ما زلت حائرا والخوف يسيطر عليّ بشكل كامل.

- عندما ترفض يتحرر خوفك، حينها ستشعر بالقوة.

- أنت تدفعني إلى هاوية لا أعرف شكلها، إلى منطقة مظلمة قد تجرني إلى التهلكة.

- أنا خالك ولست عدوا لك، وأنت حر في اتخاذ قرارك.

- لم أشعر بعد بالحرية، ولهذا لا أستطيع اتخاذ القرار.

- لقد وضعت لك إشارات على طريقك، اهتدِ بها، سوف لن تندم.

- تحدي السلطة فيه ندامة وخراب...

- سوف لن تجهر بتحديك للسلطة، كل ما هناك أنك ستعود إلى مقاعد الدراسة وترفض الانتماء إلى الحزب.

- رفض الانتماء هو بحد ذاته يمثل تحديا، وما حجتي إزاء ذلك؟

- قل لهم إنك غير مقتنع؟

- بهذه البساطة!! خالي، أنت تعيش في حالة من المثالية وتعيش في الكتب، ولا تعلم ما يدور حولك...

ضحك خالي من إعماقه، رغم كلامي القاسي تجاهه، لكنه ردّ قائلا:

- وهل أنت أدركت ما يدور حولك؟

- نعم، تحدي السلطة يعني انتحار..

- هل هذا الإدراك الذي توصلت إليه؟

- نعم...

- هذا هو هدف النظام الشمولي الدكتاتوري، يجعل من الفرد مجرد خانع خاضع له، يعيش في خوف ويفكر ألف مرة قبل أن يقول: كلا بوجه الظالمين. فهو يحوّل أفراد المجتمع إلى مجموعة من الخراف الخائفة

في حظيرة واحدة، يحرسها ذئب شرس، وبمجرد أن يفكر أحد تلك الخراف بالهرب أو مواجهة الذئب من أجل التحرر فإن ذلك الذئب سيفتك بها...

- أنت قلتها، سيفتك بها...

- الموت في سبيل الحرية أفضل من العيش بذل ومهانة..

- لديك جواب لكل سؤال.

- الشعور بالحرية الفكرية جعلتني هكذا، فأنا مؤمن بنفسي وقدراتي، ولهذا أحيا حياة سعيدة..

- حياة سعيدة في ظل ذلك النظام الشمولي؟

- سعادتي صنعتها بنفسي لنفسي، فأنا سعيد معها طالما لم أرضخ لفكر الحزب الواحد وتوجهه الشمولي، وشعوري بعدم الانتماء هو مصدر قوتي، فأنا رجل لا منتمٍ؛ طبقا لما طرحه كولن ولسن في كتابه.

- لقد تهت معك ومع أفكارك، المهم هو أن أرجع لمقاعد الدراسة، وإذا طرحوا عليّ فكرة الانتماء إلى الحزب سأقول لهم: بأنني غير مستعد، وأريد أن أركز على دراستي.

- حجة جيدة نوعا ما، لكن حاججهم بقول آخر...

- ما هو؟

- قول رئيسهم: كل العراقيين بعثيون وإن لم ينتموا...

- رائع جدا، أين كنت من البداية!

- أردت أن أعلمك أصول الرفض عن قناعة وليس كلاماً ترددده كالببغاء...

- لقد تعلمت، شكرا لك خالي...

- على الرحب والسعة.

* * *

اتخذت قراري أخيرا بالرجوع إلى مقاعد الدراسة وفي داخلي حيرة كبيرة، بسبب الشعور بالازدواجية التي عليّ أن أتعايش معها لأتماشى مع الحياة، فالأحادية ليست خيارا ناجحا حسبما فهمته من خالي خلال جلستنا الأخيرة، والركون إلى جانب واحد سيجعلني أنظر إلى الأمور من زاوية واحدة، وستخرج النتائج مسطحة وتفتقر إلى العمق والإحاطة.

مهمة صعبة عليّ مواجهتها وأنا أمثل دور المنافق الاجتماعي الذي يكتم شيئاً ويظهر شيئا آخر، فالدولة بتنظيماتها الهائلة متعشقة في مفاصل حياتنا، فالدولة والمجتمع وجهان لعملة واحدة ولا يمكن اختيار وجهٍ واحدٍ بعيدا عن الوجه الآخر، وهذا فرض قسري من جانب النظام للتماهي مع أجهزته. رحّب أهلي بالقرار لا سيما والدي الذي تكلم ناصحا بضرورة الدراسة وإحراز المستقبل من خلالها، فلا يتبقى لي سوى شهادتي في نهاية المطاف، كان كلاما إنشائيا سمعته من خالي الذي كان يسكن معنا بشكل شبه دائمي، بعد أن فرّغنا له غرفة في الطابق

العلوي، غرفة صغيرة تحوي مكتبة تكدست بها كتب متنوعة، وسرير ومروحة، وجهاز راديو.

اخترت الفرع الأدبي لضعفي في الدروس العلمية، وكذلك رغبة مني في تكملة مشواري لدراسة الفلسفة تأثرا بالخال، فانبهاري به وبمعلوماته وثقافته الموسوعية ونمط حياته، جعلني مصمما على أن أصنع من نفسي نسخة منه، وهذا ما أفرحه كثيرا حينما كشفت له عن ذلك، فأمطرني بنصائح كثيرة عجنها بفلسفته الشخصية وآرائه الخاصة.

بتُّ أتملص من الانتماء إلى صفوف الحزب بعد محاولات كثيرة من قبل بعض التدريسيين الحزبيين، وراحوا ينظرون لي بعين الريبة والشك، وجعلوني تحت المراقبة من قبل طلاب بدأُوا بالتقرب مني بحجة الزمالة والصداقة، وهم بالحقيقة يريدون أن يطلعوا على نواياي وما أضمره من أسرار حول سبب رفضي الانتماء للحزب. كانت لعبتهم مكشوفة بعد أن شعرت بهم وما يحاولون فعله تجاهي، فكانوا يشجعونني على الاستمرار بهذا القرار وراحوا يكيلون الشتائم على الحزب وينتقدون النظام صراحة وهم بذلك يريدون جر قدمي إلى المنزلق الذي يحاولون دفعي إليه، لأقع في كمينهم ويرفعوا بعدها تقريرهم إلى مسؤوليهم.

سايرتهم في مسعاهم هذا لكني كنت متحفظا، ولم أعطهم مسوغا لإثارة الشبهة والشكوك عني، لا سيما بعد أن عرفت نواياهم، بل على العكس كنت أمدح الحزب وأبجل النظام وأشيد بمسيرة الثورة، كانوا

مندهشين من ردة فعلي هذه وأصابهم اليأس والإحباط بعد أن حاولوا معي كثيرا، حتى خفّ ضغطهم عليّ شيئا فشيئا، وتلاشوا بعدها وتفرقوا عني وكأنهم تلقوا تعليمات بالتوقف في الوقت الحاضر على الأقل.

لقد مارست دور التقية في مثل ظرفي هذا، ولم أكن أعلم أن هذا الإجراء الاحترازي هو قاعدة من القواعد الدينية عند الشيعة، لمنع وقوع الضرر على المتقي، وممارستها يكون واجبا في ظل الأنظمة الظالمة التي يُخشى من سلطتها. هذا المفهوم أوضحه لي خالي الذي قال:

- لقد استعلمت التقية بشكل لا شعوري، وهذا تصرف حسن في مثل هذه الظروف.

- لكنه يخالف مبادئ الثوريين الذين تعتبرهم مثلك الأعلى!

- أصول الثورة لها زمنها ورجالها وظروفها، فليس في كل زمان ومكان يمكن تأجيج الثورات، فكثير من الثورات سُحقت من الشرارة الأولى؛ لأن الزمان والمكان والتقدير لم تكن مناسبة أو متناسبة مع ظل ذلك الظرف، وعلى الثائر أن يختار الوقت الأنسب ليفجر ثورته.

- تقصد في ظل النظام الحالي لا يمكن ذلك؟

- النظام الحالي نظام جبار متعسف ظالم، لا يتورع بسفك دم أي شخص يتبنى المواجهة معه، ولهذا قام بتصفية خصومه من الثوريين بكافة تنوعاتهم حتى من داخل صفوف حزب البعث.

- إذن علينا أن نهادن السلطة تحت مظلة التقية!

- وهل لديك حل آخر؟
- كلا...
- إذن علينا أن نصبر حتى تحين الفرصة.

* * *

الفصل الثاني

كان والدي مستلقيا على كنبته كالعادة محتضنا الراديو الكبير وهو يجوب العالم من خلال محطاته الإذاعية، مصدرا أصواتا متنوعة، وشوشة وأغاني وصوتاً رخيماً لمذيع وصوتاً نسائياً يقدم برنامجا ثقافيا، جلسات حوارية وتحليلات سياسية...حيث لم يستقر على إذاعة واحدة وكأنه يبحث عن شيء مفقود.

كنا نجتمع في غرفة المعيشة ومروحة السقف تدور بأقصى سرعتها، فضلا عن هواء المبردة الذي كان يلّطف أجسادنا المتعرقة بالبرودة، ويضرب نهايات الستائر فيحركها بصورة رتيبة، حيث كان الجو حارا ونحن نشهد أحر شهر من شهور السنة، إنه آب الذي كنا نطلق عليه بآب اللهّاب، لشدة حرارته.

كان خالي هو الآخر يجلس قبالة والدي في الكنبة الأخرى يقرأ كتابا، وكنت أنا أشاهد التلفاز متنقلا ببصري بين والدي وبقية أفراد الأسرة، حتى قفز والدي من مكانه وهو يرفع صوت المذياع وكأن الخبر قد جذب انتباهه، حركته المفاجئة أثارت فينا الفضول لا سيما خالي الذي رمى الكتاب واقترب من والدي المتحفز... لقد غزونا الكويت.

خبر نزل كالصاعقة على رؤوسنا ونحن نسمعه من نشرة أخبار البي

بي سي، لم تكن هناك تفصيلات تزامنت مع ذلك الخبر المدّوي، بل مجرد خبر عريض لم يحمل معه أية تفصيلة، كونه حدث للتو. كان الوقت صباحا حينما سمعنا بالخبر، بحث والدي في المحطات الأخرى عسى أن يجد ما يشفي الغليل ويوضح المبهم.

كان خبرا ضبابيا لم نتبين ما وراءه، والضباب يأخذ وقتا بالانجلاء حتى نرى ما كان يخفيه، فهي مسألة وقت لا أكثر، لكن الخبر بدأ ينتشر بسرعة كنار في حطب يابس، وتلقفته الإذاعات ووكالات الأنباء مع تحليلات بسيطة.

تبّسم خالي وهو يستمع إلى تلك التحليلات لكنه كان يحاول إخفاء ذلك وكأنه يضمر شيئا، نظرت نحوه والفضول يدفعني بقوة لمعرفة سر تلك الابتسامة، وكأنه تشفٍّ على ما حصل. فوشوش بإذني بأن نهاية النظام باتت وشيكة. ابتلعت السر كأني لم أسمعه، لكني بتُّ ألوكه مع نفسي متخيلا سيناريوات الإطاحة برأس النظام، لكن كيف؟ فالأمر كان معقدا إلى حد كبير، مع فقدان المعطيات التي تربط بين دخول الجيش إلى الكويت وسقوط النظام.

كانت التصورات أكبر من تفكيري وقدراتي، فالوضع متشعب وشائك وينذر بمجهول مخيف. ولا يمكن لأحد التكهن بالخطوات القادمة حتى لو كان سياسيا محنكا، لكن خالي بدا وكأنه نبي وهو يطلعني على استشرافه للمستقبل متوقعا القادم من خلال تحليلات ذاتية

أجراها على شكل مخططات ثبّتها بدفتر خاص لا يطلع عليه أحد حتى أنا المقرب منه.

هبّ الناس لتخزين المواد الغذائية بعد أن فرض المجتمع الدولي قرارات توصي بعزل العراق اقتصاديا وسياسيا، وهو نوع من العقوبات على ما اقترفه النظام من غزو دولة أخرى ذات سيادة، كان الناس يتخبطون بشكل عشوائي، فالقادم مجهول وما تخبئه الأيام اللاحقة غير معروف وينذر بالخطر. لا سيما وأن هناك تلويحاً بعصا التدخل العسكري من قبل تحالف دولي تشّكل بقيادة أمريكا إذا ما انسحب العراق من الكويت.

كل المؤشرات تؤكد تورط النظام في هذه الخطوة غير المحسوبة وكأنه علق بمستنقع لزج لن يخرج منه بسهولة، وإذا خرج سيكون وضعه مأساويا، ولن يخرج نظيفا أو معافى، بل مثخنا بالجراح وهذا ما نوّهت عنه القوة المعادية التي أخذت زمام المبادرة في إخراج العراق من الكويت حتى لو بالقوة المفرطة.

كنت أتابع الأخبار الساخنة التي تبثها محطات الراديو مع تحليلات دقيقة تكّفل بها محللون سياسيون وهم يستعرضون حجم الدمار والخسارة التي سيتعرض لها العراق إذا ما ركب رأسه وعاند المجتمع الدولي، بالرغم من إعطائه فرصا كثيرة لمراجعة قراراته في الانسحاب لتفادي العقوبات المفروضة والحرب المتوقعة.

لم يكن مزاجي متاحا لمواصلة الدراسة التي بدت متعثرة بسبب تلك الأحداث، رغم كوني طالبا جامعيا وأدرس الفلسفة وأنا الآن في المرحلة الثانية، ذلك التخصص الذي أحببته وجاهدت كثيرا لكي أجتاز مرحلتي الإعدادية ليكون هدفي وبمباركة خالي الذي أصبح يساعدني كثيرا في شرح بعض الموضوعات التي وجدتها معقدة وعويصة. كانت الكتب متناثرة أمامي لكن ذهني كان منشغلا بالوضع العام، مراقبا تلك الفوضى التي أعقبت دخولنا إلى الكويت، فوضى شعبية وتشتت في المواقف وتخبط في القرارات، حيث ركب النظام موجة التحدي متعكزا على إرثه وقدراته العسكرية، بترسانة عسكرية هائلة وجيش ضخم تجاوز المليون جندي مع آلاف الدبابات والعجلات العسكرية فضلا عن الصواريخ بعيدة المدى وأسراب كثيرة من الطائرات.

كان النظام يتباهى بهذه القدرة العسكرية وعدها درعا قويا سيصد بها جيوش العالم، متعكزا على انتصاراته في حرب ثمان السنوات واكتسابه الخبرة الطويلة من خلال تلك الحرب. لكنه لم يكن يعلم أن التطور قد طال المجال العسكري وقوة مثل أمريكا أو بريطانيا قد غادرتا المواجهات العسكرية الكلاسيكية وبدأت تعتمد السيطرة الجوية والنظام الراداري المتطور مع إدخال التكنلوجيا في جميع المعدات العسكرية، وهذا سيشكل فارقا حتميا في حسم المعركة لصالح دول التحالف المتطورة تكنلوجيا.

تصورات متقدمة بدأت أحصل عليها من خلال استماعي لنشرات الأخبار وما يصاحبها من تحليلات عسكرية لقادة محنكين، وكذلك استئناسي بتحليلات خالي الذي كان يجيب عن أسئلتي الكثيرة حول الوضع العام واستعراض القدرات العسكرية بين الطرفين.

- هل من المعقول أن تغيب هذه التحليلات عن ذهن قيادة النظام؟ سؤال طرحته على خالي الذي كان غارقا في تأملاته وهو يحرق السجائر...

- النظام يفكر بطريقة متخلفة تعصبة...

- لم أفهم، ماذا تعني؟

- رأس النظام وحاشيته هم من أسر متخلفة ليسوا من الكفاءات العلمية أو الأكاديمية، وإذا ما فكروا في المواجهة فالتحليل العلمي سيغيب عن أذهانهم، فالعقلية المتخلفة معروفة بالتعصب وضيق الرؤية، وهمها المواجهة وحسب دون حساب للنتائج المنتظرة.

- وهل خلا النظام من الكفاءات العلمية من السياسيين والعسكريين حتى يدلوا بآرائهم لتفادي حصول مزيد من الكوارث؟

- لا يجرؤ أحد على أن يصارح رأس النظام وحاشيته بما يجول بخاطره؛ لأن ذلك سيخالف رؤية الرئيس ويسّفه قدراته ومخططاته وكأنه يقول له: بأنك على خطأ في اتخاذك مثل هذه الخطوة، وهذا ما سيثير غضب الرئيس وربما يطيح برأس القائل. ولهذا فهم يخافون من

الجهر بآرائهم ومشوراتهم علانية أمام رأس النظام، وسيعدها الأخير خيانة عظمى، فالرئيس لا يريد أن يستمع لأحد إلا بما ينسجم وأفكاره ورؤاه.

- كارثة إذا كان الأمر كذلك....

- كارثة بكل المقاييس، ولا أستبعد أن تحصل هناك سلسلة من الإعدامات للقادة من العسكريين بسبب عدم الانصياع للأوامر.

- وهل تتوقع ذلك؟

- نعم، فالقائد العسكري هو الوحيد الذي يدرك خطورة الموقف عسكريا، بسبب عدم التكافؤ بين مستوى الجيوش المتحاربة، وهم يدركون جيدا أن التفوق العسكري والتكنلوجي لقوى التحالف سيطيح بالجيش العراقي في زمن قياسي.

- وكيف سترى الوضع بعد الحرب؟

- سنشهد مأساة حقيقية، فلو حصلت الحرب سيعمد التحالف الدولي إلى تدمير الترسانة العسكرية العراقية؛ لأنها تشكل تهديدا على دول الجوار الأخرى، ثم سينعزل العراق سياسيا واقتصاديا وسنشهد أوضاعا مزرية.

- تتكلم وكأنك ترى المستقبل؟

- هذه تحليلات، فمن خلال دراستي للاقتصاد واطلاعي على بعض كتب السياسة واستماعي لتحليلات المتخصصين، خرجت

بهذه الحصيلة من النتائج، وأتمنى ألا تقع؛ لأنها ستكون مؤلمة جدا لنا كمجتمع.

- وما العمل؟

- ليس بيدي شيء لكي أفعله، فأنا لست بصاحب قرار...

- أقصد ماذا ستفعل أنت حينها؟

- نحن كمجتمع ليس لنا حول أو قوة؛ لأن النظام هو صاحب المبادرة ويمتلك قوة القرار، وهو من يتحكم بمصير الملايين من الناس، فهذه هي الأنظمة الشمولية وسلبياتها، فنظامنا (الموقر) زج بنا بحرب طالت ثماني سنوات وأحرقت الأخضر واليابس وزُهقت خلالها أرواح عشرات الآلاف من الشباب، والآن غامر مرة أخرى وورطنا بقضية دولية كبرى وسنجني نتائجها قريبا.

- هذا يعني أنك سوف لن تتحرك؟

- سأراقب الوضع عن كثب ولكل حادث حديث.

* * *

أيام ثقيلة بتنا نعيشها وهي تجرنا إلى نهاية مجهولة، والوضع العام بدا مستفزا ومتوترا مما انعكس على حياتنا كعراقيين، حيث تحولنا إلى مجموعة من الحمقى يجهلون قراءة واقع مخيف أصبح يحاصرهم من كل جانب، ومما زاد في توتر الناس واستفزازهم هو حملات السوق العسكرية التي بدأت تجريها القيادة العامة، والتي طالت مواليد كثيرة

شاركت أصلا في حرب ثمان السنوات، من أجل التعبئة العسكرية وتحشيد الحدود بمزيد من القطعات لصد أي عدوان خارجي.

انتحار آخر للجيش العراقي الذي لم يعرف طعما للراحة أو الاستقرار، طالما هناك شريحة شباب واسعة ستكون حطبا لنار كبيرة مرتقبة. كان خالي (كريم) من ضمن المواليد التي تم استدعاؤها للسوق، كان ممتعضا جدا وهو منزوٍ في غرفته يدخن السجائر ويجتر الذكريات، فهو من مواليد ١٩٥٩ والذي تم استدعاء مواليده من ضمن مواليد كثيرة، من أجل سوقها إلى مراكز التدريب، بالرغم من وظيفته كمدرس، فهذه الصفة لم تعطه حصانة ضد الانخراط في تشكيلات الجيش، كنا نجلس طويلا في الغرفة نثرثر في مواضيع شتى، لم يعر اهتماما بالتطورات الجديدة، فكان يتوقع كل شيء يصدر من نظام بدأ يتخبط بعد أن تم حصره في زاوية ضيقة وحرجة، والتعبئة العسكرية تدل على أنه سينجر للمواجهة مع قوى التحالف، دون تفكير أو اتخاذ القرار بالانسحاب قبل وقوع الكارثة، ففضل المواجهة دون حساب النتائج.

كنت أمازحه لأخفف عنه وقع الصدمة، وأكرر عليه نكتة على شكل سؤال، طالما سمعها مني:

- اسمك كريم وأبوك قاسم وأنت من مواليد ٥٩... هل هذا يعني أن الأمر مرتبط بعبد الكريم قاسم؟

كان يضحك كثيرا على هذا السؤال الخبيث، فيجيب بأريحيته المعهودة:

- كان الشعب العراقي يحب الزعيم، وأغلب الولادات التي تزامنت مع الثورة وبعدها قد تم تسميتها على اسم الزعيم عبد الكريم...؛ لأنه كان محبوب الشعب دون مبالغة...

- ولماذا أحبه الناس رغم أنه قد أطاح بالعائلة المالكة؟

- أحبوه لبساطته ودعمه للفقراء، أما سقوط الملكية فكان أمرا حتميا ومفترضا؛ لأن هناك أسباباً كثيرة أدت إلى الإطاحة بذلك الحكم.

- هل تقصد أن الحكم الملكي كان سيئا إلى هذا الحد؟

- ليس سيئا إلى درجة كبيرة، بل كانت هناك سلبيات كثيرة، والفترة الزمنية التي حكم بها الملوك الثلاثة اتسمت بعدم التوازن السياسي، فضلا عن التبعية للإنكليز، ناهيك عن حال أغلب العراقيين الذين كانوا يعانون من الفقر والعوز، واستفحال النظام الإقطاعي المستبد الذي نكّل بالفلاح وسحقه بقوة.

لقد انتشل الزعيم الطبقة الفقيرة المسحوقة من حالة البؤس والقهر إلى مستوى أعلى، فوزع الأراضي وقضى على العشوائيات والصرائف وأسكن شاغليها ببيوت محترمة، وشرّع قوانين كثيرة وشجع الصناعة والزراعة، لقد أخذ على عاتقه أن يبني البلد بيد نظيفة، لكن المؤامرات بدأت تُحاك ضده من أجل الإطاحة به بعد أن حقق نجاحات كبيرة.

- دعنا من الزعيم الآن... ماذا ستفعل بعد استدعائِك للجيش؟

- لا أدري، الأمر مربك ومحيّر فعلا، وأنت تعرفني جيدا وتعرف موقفي من النظام وكرهي الشديد له، وأمر الخضوع له وتلبية تعبئته العسكرية تؤرقني جدا، فأنا رجل صعب المراس ولي منعة شديدة ضد أي مسألة تُفرض عليّ فرضا، طالما تخالف مبادئي وتوجهاتي الفكرية، وبنفس الوقت لا أريد أن أوصم بالجبن والعار، فأنا لست جبانا ولا أريد أن يُقال عني بأني فررت من الخدمة العسكرية.

- أمر محيّر فعلا، لكن كيف ستتصرف إزاء هذا الإشكال العويص؟

- سألتحق بالخدمة حينها سيكون لكل حادث حديث....

كان قرارا مصيريا وصارما في نفس الوقت أن يلتحق خالي بالخدمة العسكرية، ذلك الشخص الذي يتفوق على أي فرد آخر بكرهه للنظام البعثي؛ لأنه يمثل له نموذجا للدكتاتورية والظلم والتعسف... فكيف إذن سيخضع لآلته العسكرية.

لم أعرف حقيقة ما يجول بخاطره وما يفكر به، فهو ينطوي على أفكار ومشاريع كثيرة، وربما اتخذ قراره هذا بناء على مخطط وضعه لنفسه لم يفصح عنه لأقرب المقربين إليه، شعرت بذلك من خلال خلواته الكثيرة مع نفسه مفكرا بعمق بما سيؤول إليه الوضع العام ووضعه الشخصي.

أخي الأكبر مني التحق بالخدمة مرغما هو الآخر، فلا مفر من ذلك... وبقينا أنا وأخي الأصغر مني، الطالب في الإعدادية، نراقب بعيون وجلة ونفوس مضطربة، فدخلت أمي في كهف الحزن والترقب، مستعيدة بذاكرتها فاجعة ولدها البكر الذي لم تجف دماؤه بعد رغم مرور أكثر من ثلاثة أعوام على استشهاده، وما زالت تتوشح بالسواد وأبت أن تخلعه حتى تغمض عينها وتصبح تحت التراب، وعدا قطعته على نفسها حزنا على ولدها.

عم الحزن بيت عبد الواحد من جديد، أبي كان يركن إلى زاويته منشغلا بسماع الأخبار ووالدتي تأكل نفسها حزنا على ولدها الذي التحق إلى وحدته العسكرية ولا نعلم أي مصير سيواجه، فضلا عن أخيها (كريم) الذي التحق هو الآخر بعد أن ودعنا، وكأنه الوداع الأخير، كان مبتسما رغم المصير المجهول الذي ينتظره، احتضنني طويلا وهمس بأذني بعض الكلمات...وقال:... ربما لن تراني بعد الآن...لم يترك لي مساحة صغيرة للحوار معه لأفهم منه مغزى كلامه، بل تركني مضطربا وأنا ألوك الحيرة والحزن.

لقد ترك في نفسي فراغا كبيرا وشعرت بالتيه يعصف روحي، فهو كان أنيسي في الخلوات الكثيرة التي جمعتنا، متأثرا بآرائه وأفكاره وتطلعاته، مستأنسا بالحوارات الطويلة التي كنا نجريها، متعكزا في كثير من قراراتي على تسديداته وتوجيهاته لي. أما الآن فقد أصبحت

عريانا وكأن غطاء ما قد سُلب مني ودفعني لمواجهة الحياة وحيدا دون سند أو ساند.

* * *

دوّت القنابل الساقطة على بغداد بأصواتها المرعبة، وهي تدك كل شيء، قصوراً رئاسية، مقرات جيش وثكنات عسكرية، دوائر الأمن والمخابرات، جسوراً، منشآت مدنية وعسكرية، بنى تحتية، محطات الكهرباء... كل شيء كان مستهدفا وكأنهم يريدون مسحنا من الخريطة العالمية. كانت هجمة شرسة حلّقت خلالها طائرات كثيرة ومتنوعة فضلا عن الصواريخ العابرة والمنطلقة من البارجات والقواعد الأرضية في دول الخليج. لقد تكالب العالم علينا وهو يبرحنا ضربا بأسلحة فتاكة مدمرة، كردة فعل على ما اقترفه النظام من خطأ كبير باحتلاله دولة مستقلة وذات سيادة. كان الثمن باهظا جدا، ونحن نتعرض لأبشع الضربات العسكرية وأقساها، ولم يكن لنا نحن كشعب مغلوب على أمره الخيار في تفادي ذلك، بل كنا تحت رحمة الصواريخ والطائرات التي صبّت حممها علينا بشكل مرعب.

لم نكن نعرف ما يدور هناك في الجبهات المتعددة، سوى ما تبثه محطات العالم الإذاعية، أخبار متفرقة وتحليلات عسكرية وسياسية، وجميعها ترجح خسارة الجيش عاجلا أم آجلا بسبب التباين الواضح بين القوتين، فقوات التحالف أظهرت تفوقا جويا فائقا، شلّ به كل

شيء، بدءا من منظومات الرادار إلى تحجيم حركة الطائرات العسكرية التي جثمت على أرض المطارات دون حراك، أو أي أمر متعلق بالتكنلوجيا العراقية المتأخرة.

رغم الخراب الذي حلّ على العراق طيلة أسابيع طويلة، وتلقيه آلاف الأطنان من المتفجرات وهي تستهدف كل المرافق العسكرية والمدنية، إلا أن ذلك لم يكن يقلقني تجاه تطورات الجبهة وما يحصل فيها، فخوفي على أخي وخالي جعلني منقطعاً إلى نفسي، تعلوني الكآبة ويأكلني الحزن، بسبب الغموض الذي يلف الوضع هناك، بعد أن سمعنا بأن هناك هجوما بريا شنته قوات التحالف على القطعات العراقية الرابضة على الحدود الجنوبية الغربية. لقد دخلنا في حالة من الحزن مريعة جدا ونحن نلوك الصبر بانتظار انجلاء الغبرة عن المشهد العام وما ينطوي عليه من غموض ومفاجآت.

ارتبك النظام بقوة وهو يواجه مصيرا محتوما بعد أن فقد السيطرة على مجريات الأمور بعد أن تساقطت الحسابات التي رسمتها الحاشية المقربة من رأس النظام وهي توهم الجميع بإحراز النصر الأكيد أمام تلك القوى الجبارة، أوهام العظمة تبخرت بين ليلة وضحاها بعدما انكشفت الهشاشة الداخلية لقوة النظام، الذي ظهر بمظهر النمر الورقي المحترق من أول جولة على ساحة المحك.

كانت الخسائر كبيرة جدا بالأفراد والمعدات، وسُحق الجيش بصورة

مهينة بعد أن انسحب مخذولا من أرض الجبهة، وهذه نتيجة طبيعية للعناد الغبي والأخطاء الفادحة باتخاذ القرارات المصيرية. رجع لنا أخي بعد أن قطع مئات الكيلومترات مشيا على الأقدام بسبب انقطاع الطرق وتعذر وجود المواصلات، فالإرباك الذي حصل في صفوف الجيش بسبب كثافة القصف الجوي جعل منه بقايا جيش، مع انهيار المعنويات وتسرب القادة وضياع البوصلة وانقطاع التواصل، عوامل أدت إلى نتيجة متوقعة وهي خسارة الحرب.

قص لنا أخي حكايات يشيب لها الولدان، كان تراب الجبهة يعلوه وآثار الدخان والحرائق تغطي وجهه، متهرئ الملابس خائر القوى، منسحقاً تماما من الداخل وكأنه يقول بسره: لماذا حصل ذلك؟ ولأجل من؟ ما الجدوى التي حصلنا عليها والثمن الذي قبضناه؟!

أما خالي فلم نعرف له مصيرا ولا سبيلا، ولم يرجع مع الراجعين، بالرغم من مضي أيام طويلة على نهاية الحرب، قلقي عليه مزقني من الداخل وغيابه عنا خلق فجوة كبيرة في حياتي وأشعرني بضياع كبير وفراغ مخيف. كنت أجلس طويلا في غرفته متأملا كتبه الكثيرة وبقايا سجائره التي كان يحرقها حينما ينقطع للتفكير والتأمل في أفكاره وكتبه.

رائحته ما زالت تطوف في الغرفة وكأنه موجود، وصدى كلماته تتردد على أذني وضحكاته الجاذبة على أسئلتي البريئة الساذجة تملأ

المكان. ملابسه الأنيقة معلقة في الخزانة وقد علاها الغبار، ماذا يعني ذلك؟ هل سنفتقده إلى الأبد؟ وكأنه مفقود!! والمفقود بحكم المقتول.

نصبت أمي مناحة حزينة، فهي لم تقر عينها بعد بالرغم من رجوع ولدها، لكن أخاها بقي عالقا هناك وهي تنظر نحونا بعيون دامعة ووجه شاحب، وكأنها تستغيث بنا بأن نبحث عنه ونرجعه إليها لتقرَّ عينها. كان صراعا مريرا حاولت مقاومته لكن دون جدوى، فنداء أمي الخفي أقضَّ مضجعي وأشعرني بالعجز والتخاذل، كنت أسمع أنينها وهي تولول على فقدان أخيها، وتكتم صوتا داخليا غير مسموع بأن نتحرك تحرك الرجال النشامى لنأتي بخبره، حيا أو ميتا، ليبرد فؤادها وتطمئن.

الفقدان من أصعب الحالات الإنسانية، والمصير المجهول يمثل كابوسا مرعبا لكل من يخاف الفقد؛ لأنه يمثل حالة من اللا استقرار، فالأمور المعلقة تسبب الجنون والإنسان بطبيعته يميل إلى الحسم والوصول إلى النهايات؛ لأنه سيعيش على أمل مجهول وسيواجه عذابا مضاعفا، وهذا ما تخشاه أمي، فهي لا تريد أن تبقى معلقة هكذا وتعيش على أمل ربما لن يأتي.

كنت أنظر إلى نفسي وكأنني ما زلت مراهقا أو صبيا وحتى طفلا، رغم بلوغي سن العشرين، فأنا بالغ بنظر المجتمع والعرف والقانون، فلست قاصرا حتى لا أؤاخذ بما أفعل، إذن يجب عليّ أن أتصرف تصرف

الرجال المسؤولين وأتخذ القرار المناسب، ملبيا نداء الصوت الخافت الذي تطلقه أمي في زاويتها، زاوية الأحزان، وهي تجتر البكاء والحزن.

اتخذت القرار بالتحرك بدلا من وضع اليد على الخد وندب النفس؛ لأن الوضع أصبح لا يطاق بسبب الفراغ الذي خلفه خالي بالنسبة لي على الأقل، ولأبرّد قلب أمي المحترق بنار الفقد. فأنا لم آخذ بثأرها ممن خطفوا ولدها الأكبر وحان الآن التكفير عن ذلك الذنب الذي عذبني طوال سنين طويلة. مانع أهلي خطوتي هذه وعدوها مخاطرة كبيرة لا سيما والدي الذي حذرني من التوغل في المجهول ودخان حرائق الحرب لا زالت تلبِّد سماء البلاد. لكنني كنت مصمما على هذا القرار وعيون أمي تلاحقني، فرضيت وتمنّعت بنفس الوقت، فلا تريد مفقودا آخر يضاف إلى سجل مأساتها، لكنها توسمت بي خيرا بأن أرجع لها بخبر أخيها.

قبل مغادرة خالي ملتحقا إلى وحدته، أخبرنا بأن وحدته العسكرية هي قاعدة الإمام علي في الناصرية، هذه المعلومة الوحيدة التي ترسخت بذهني، والتي من الممكن أن تقودني كخيط إلى مكان تواجده.

كان أخي الأكبر يعيش في حالة من الصدمة، فما رآه من ترويع هناك على الجبهة وصوت المقذوفات المحترقة فوق رأسه جعلته في حالة انزواء وتقهقر، فهو لم يشارك برأي أو يدلي بمشورة، فنفسه كانت متهالكة وكأنها مُزقت بسبب الانكسار الذي حصل في صفوف الجيش. لكنه قال

قبل مغادرتي الدار: احذر وانتبه من الطريق وتجنب العربات المحترقة والخطوط العسكرية؛ لأنها ما زالت محل استهداف.

* * *

كانت الفوضى منتشرة في جنوب البلاد كأرض ضربها زلزال، فكل شيء كان في دوامة لا متناهية والناس في هرج ومرج، فشعرت بأن يد النظام غائبة عن مفاصل المجتمع هناك، وبات الجميع يتحرك بسرعة وكأنهم يعدون العدة لشيء ما، فغياب القانون والدولة أيقظ بداخلي خوفا من أمر جلل ربما سيحدث.

كان هدفي الوصول إلى القاعدة العسكرية متجنبا الطرق المشبوهة متحاشيا الأهالي الغاضبين الذي تزينوا بالأسلحة والمعدات وهم يهزجون كالثوار، كان المنظر مخيفا وكأنه انفلات أمني غير محسوب العواقب. فشعرت بأني قدمي قد انزلقت في وحل خطر يصعب الفكاك منه. وصلت إلى القاعدة بعد أن تقطعت بي السبل، لكن بعض الخيرين من أهالي الناصرية وبعد أن عرفوا مرادي وهدفي أوصلوني إلى القاعدة التي تبيّن لي أنها أصبحت مجرد ركام. فالطائرات الحربية قد دكتها بعنف وفرّقت طاقمها، حتى بدت خالية من أي شيء، فتساءلت عن مصير الجنود الذين كانوا هنا... فكان الجواب صادما، بأن أغلبهم استشهدوا بعد أن تفّحمت جثثهم وتم دفنهم في مقابر جماعية، من قبل الأهالي؛ لأنهم لم يُعرفوا لهم هوية، وانسحب قسم منهم قبيل القصف المكثف،

وآخرون استسلموا لقوات التحالف التي نزلت بطائراتها على أرض القاعدة، فأخذتهم كأسرى.

كانت مصائر مختلفة ومخيفة أيضا، فدخلت في دوامة محيّرة، فإلى أي خيار ممكن أن أضع خالي فيه، هل من جماعة الجثث المحترقة، أو من المنسحبين، أم من الأسرى. لو كان منسحبا لكان قد وصل إلينا مثل أخي الأكبر، وإذا استشهد فعلي أن أبحث في المقبرة الجماعية لأتعرف على جثته المحترقة، لكن كيف سأتعرف عليها، لكن ربما قد تم أسره على يد الجيش الأمريكي. كانت حيرة كبيرة أحاطت بي كالشراك، تأملت طويلا في منظر القاعدة الخربة، والتي استحالت إلى ركام والدخان ما زال يتصاعد من بعض آلياتها العسكرية. فحسمت أمري بالرجوع وأنا أحمل بين جنبيّ سرا، سأحتفظ به لنفسي، وسأقول لأهلي: بأن خالي قد تم أسره، عسى أن يخفف ذلك عن أمي الملتاعة، وسأتكتم على مسألة الجثث المحترقة.

كان الرجوع إلى بغداد صعبا للغاية، فالطرق تقّطعت مع غياب المركبات التي اختفت على حين غرة، ما عدا بعض المركبات المدنية الخاصة التي كانت تمرق بسرع جنونية وأخرى تجوب الشوارع وهي تحمل مسلحين. فضلا عن سيارات البيك آب وهي تقل رجالاً ملثمين وبأيديهم أسلحة خفيفة ومتوسطة. منظر مرعب يخفي خلفه خطرا محدقا قد يجتاح المحافظة. لم تكن لي دراية بما يحصل حقيقة، فالفوضى العارمة والانهيار

الأمني وغياب السلطة كانت ملامح المشهد هناك، وكل من ألتقيه وأسأله عن حقيقة ما يجري، يتهرب من الإجابة وكأنه يخشى شيئا.

كان الأهالي يعيشون حالة من الذهول وفي عيونهم بريق أمل بعيد المدى، ابتساماتهم حذرة ونفوسهم متوفزة، شعرت بأنهم بدأوا يتنفسون الحرية بظل غياب السلطة التي كتمت على أنفسهم طويلا، لكنها حرية مغلفة بالحذر ربما لن تستمر طويلا ومنظر المركبات الغامضة والرجال المسلحين وهم يجوبون الشوارع ويقتلون العناصر المشبوهة من رجال السلطة الحزبيين والأمنيين.

مقرات الحزب احترقت وبناية المحافظة كذلك وجميع مقرات الأمن والشرطة لم تسلم من الحرق والاستيلاء، صور صدام حسين تم استهدافها وأُحرقت هي الأخرى وهو مؤشر خطير قد يفجر الأوضاع بشكل مأساوي. فالنظام المعروف بقساوته وبطشه سوف لن يسمح بمزيد من الانفلات الأمني الذي يهدد السلطة في بغداد. وظهور جماعات مسلحة وهي تندد بسقوط الطاغية مرددة شعارات مخيفة دوى صداها في الأرجاء.

كنت عالقا بشكل قسري في ذلك الفك المهلك، بعد أن تقّطعت بي السبل للرجوع إلى بغداد، بعد أن خرج الجنوب عن السيطرة، وأنا أسمع من هنا وهناك بأن أغلب محافظات الجنوب قد انتفضت ضد السلطة في محاولة لإسقاطها.

كان الدخان الأسود يملأ السماء وصيحات الرجال الثائرين يتردد صداها في أغلب المناطق وهي تندد بسقوط حكم الطاغية ونظامه القمعي. وسط الخراب الذي طال أغلب دوائر الدولة كنت أراقب الوضع بعيون قلقة خائفة وليس لي سوى الدعاء بأن يخلصني من ذلك المأزق الخطير. لم أكتم فرحتي وأنا أشاهد مناظر السيطرة على مفاصل الدولة الغائبة عن تلك المناطق من قبل الجموع الغاضبة، وهذه نتيجة طبيعية لممارسات النظام الدكتاتورية تجاه الشعب المظلوم، فالناس خرجت بعد أن ذاقت مرارة الظلم والحروب على يد رجل مهووس بالحكم القمعي.

التجأت إلى أحد جوامع المدينة للراحة بالرغم من وجود مسلحين فيها، وكأنهم اتخذوه مقرا لهم، حققوا معي طويلا وسبب مجيئي إلى الناصرية وأخبرتهم بالهدف الذي جئت من أجله وأبرزت لهم هويتي وبعض الوثائق التي تخص خالي المفقود. تركوني أرتاح قليلا في الجامع ووفروا لي بعض الأطعمة، لكنهم لم يغفلوا عن مراقبتي وكأنني مشتبه به.

عرضوا عليّ الانضمام إلى صفوفهم في مقارعة النظام والقيام بثورة لإسقاطه، كان هذا اختبارا حقيقيا لي في إثبات مدى كرهي للنظام ورأسه، لم أتردد بالموافقة رغم غياب خبرتي في استعمال السلاح، كنت مندفعا بشكل لا شعوري نحو تحقيق هدف قديم لم أحققه في الماضي، فحانت الفرصة الآن لأثبت لنفسي بأني قادر على الأخذ بالثأر لأمي.

* * *

كان المخطط العام للثوار بأن يزحفوا باتجاه بغداد من أجل إسقاط النظام، كانت مجازفة كبيرة مشحونة بعاطفة جياشة ألهبت الجماهير الغاضبة، كنت كريشة تتقاذفها الرياح وأنا أتخبط يمينا وشمالا بعد أن فقدت الأمل بالرجوع إلى بغداد وانزلقت قدمي نحو منحدر خطر مجهول الجانب، فالجانب العاطفي برز بشكل متضخم وغطى على العقل، فالأجواء المشحونة بالتوتر أصبحت كتيار قوي جرفني إلى ضفة أخرى هي ليست ضفتي، فكنت كمن يمشي مغمض العينين خلف سراب لم أتبين حقيقته بعد.

أيام ثقيلة مرّت وأنا قابع في ذلك الجامع، أستمع لخطب رجال الدين وهتافات المصلين وتوعد الثوار بالقضاء على النظام الدموي، يأكلني القلق على نفسي وأهلي الذين لا أعرف كيف حالهم الآن، حيث أصبح لديهم فقيدان بدلا من واحد، أما حال أمي فلا أريد التفكير به؛ لأنه يمزقني من الداخل، وأتصورها الآن كيف نصبت مناحة مضاعفة وتوشحت بحزن مزدوج عليّ وعلى أخيها.

لم يسبق لي استعمال السلاح من قبل، لكنهم أصروا على إعطائي بندقية كلاشنكوف بعد تعليمي كيفية التعامل معها، معلومة بسيطة أولية أدلى بها مساعد المجموعة والذي يدعى أبا فاطمة... رجل في أواسط الأربعينات، ملتحٍ وعلى جبينه علامة السجود، يرتدي ملابس شبه عسكرية، ويلف على رأسه يشماغا أسود. كان أبو فاطمة دمث

الأخلاق متديناً ورعاً، لكنه تميّز بالقساوة بكل ما يخص الأفراد الحزبيين والعناصر الأمنية وكل ما يتعلق بالنظام، فكان يسارع إلى إعدامهم وسحلهم بالشوارع أو يعلقهم في بوابات مقار الفرق الحزبية. بدا لي مزيجا غريبا من التناقضات حملها رجل واحد، وقد عرفت فيما بعد أن لديه إخوة معدومين بتهمة الانتماء إلى حزب الدعوة، ويبدو أنه كظم غيظه من ذلك الوقت حتى تفجّر البركان الكامن بصدره الآن، فهو مدفوع للأخذ بالثأر لإخوته، فكان رده قاسيا لا تراجع فيه، فهو لم يتوان في إنزال أقسى العقوبات في الزمر الأمنية القمعية التي كانت تتحكم بمصائر الكثير من الناس لا سيما المشتبه بهم، فكانوا يغيبونهم في السجون والطوامير سنين طويلة وهم يتعرضون للعذاب.

كنت متعاطفا مع أبي فاطمة بسبب فاجعة فقدانه لإخوته وكيف انتهى مصيرهم إلى المجهول... لم نتسلم جثثهم بعد أن أبلغونا بخبر إعدامهم...هكذا قال عندما سألته عن إخوته المعدومين...

- وأين كانوا أصلا، في أي مكان؟

- مديرية الأمن العامة..

- يا له من مكان...كنا نسمع أن من يدخل هذه المديرية لن يخرج سالما...

- نعم، حينما نصل إلى بغداد بعون الله سأدخل إلى هناك وسأقوم

بملاحقة الجلادين الذين لهم اليد في تعذيب إخوتي، وكذلك المحققين المسببين بإعدامهم، سوف أقتص منهم واحدا واحدا...

- وهل تعرفهم؟

- نعم، حصلت على هذه المعلومة بصعوبة بالغة وخلال سنين طويلة من البحث والسؤال، حتى سهل الله لي الأمر وهيأ لي أشخاصا كانوا معتقلين هناك وخرجوا بعد مدة، وقصوا لي حكايات تشيب لها الولدان، وذكروا أسماء كثيرة بدءا من الضباط المحققين وحتى الجلادين، فهم الذين أشرفوا على تعذيب إخوتي وحسب تلك الشهادات.

- إنه لأمر محزن حقا، ولك الحق بأن تثأر لإخوتك الشهداء...

- شكرا لك أخي، وعليك أيضا أن تأخذ بثأر أمك من هذه الطغمة الظالمة، فلا سكوت بعد الآن والوضع أصبح تحت سيطرتنا، وستأتي مجاميع جهادية من مناطق أخرى من أجل مساندتنا، يجب أن نزحف باتجاه بغداد وسنسقط المحافظات واحدة تلو الأخرى، لنصل إلى رأس الأفعى ونقطعه ونتخلص منه إلى الأبد.

كانت كلماته حماسية صادرة من صدر يتميّز غيظا وغضبا، وهو يتكلم بحرقة، فالبركان الذي بداخله صيرّه إلى كتلة ملتهبة من الكراهية ضد النظام، وجنّد نفسه لمقاتلة كل من يحاول إطفاء شرارة الثورة، فكان يقود مجاميع مسلحة بأعداد كبيرة ويحثهم على القتال وصد أي هجوم

مرتقب، يضع الخطط ويصمم الكمائن ويؤّمن الطرق ويوجه الرجال بحزم وقوة.

أما القائد فلم أره ولم ألتقِ به أيضا، ويبدو أنه شخصية مهمة وغامضة بنفس الوقت، لم أعرف اسمه ولم يدلِ أحد باسمه أو كنيته أمامي، وكأنهم ما يزالون يتوجسون مني خيفة وشكا، ويبدو أنه في مكان آخر أكثر أمنا وربما يلتقي بقيادات على مستوى عالٍ من الأهمية، قد يكونون رجال دين بارزين، أو شخصيات سياسية معينة، هكذا وصل إلى مسامعي من بعض الإخوة الذي كانوا يثرثرون قريبا مني، فكنت أصغي إليهم وألتقط منهم بعض المعلومات.

عند خيوط الصباح الأولى بينما كنت نائما بهدوء في ذلك الجامع، محتضنا سلاحي، أكابد الكوابيس التي اجتاحتني ليلة البارحة، حتى دوّت قنابل ذات أصوات قوية، كأنها صواريخ أو قاذفات مع إطلاق نار كثيف جدا، هرع الرجال الذين كانوا يأخذون قيلولة الصباح بعد صلاة الفجر، حتى تراءى لنا المنظر المرعب، دبابات الحرس الجمهوري والخاص وجنودهم يجتاحون المدينة بقسوة مفرطة، وهم يدمرون كل شيء يقف بوجههم، فجرت معارك ضارية على تخوم المدينة راح ضحيتها معظم أفراد المجموعات المسلحة بينما انسحب الباقون باتجاهات مختلفة، وأصبحوا عرضة للملاحقة.

كانت القوة القادمة من بغداد تفوق القوة المدافعة، ولهذا لم يصمدوا

سوى سويعات قليلة، تغطيهم طائرات الهليكوبتر كإسناد جوي، ويبدو أن النظام قد كشّر عن أنيابه القبيحة ولم يطق الانتظار وهو يرى المحافظات الجنوبية تتساقط واحدة تلو الأخرى، فعقد العزم على الضرب بيد من حديد على المجاميع المنتفضة ومن يقف وراءَهم، فأصبح يضرب بقوة لا تهاون فيها، وبدأ يسوق الرجال كأسرى إلى محافل الإعدام كعقوبة آنية.

كنت مختبئا في ذلك الجامع بعد أن تخلصت من سلاحي، وارتديت ملابسي المدنية وهيأت أوراقي الثبوتية، عسى أن ينجدني ذلك من القتل أو الاعتقال. لكن وجودي مختبئا سيزيد من الشكوك، والأفضل أن أخرج إلى الشارع وكأني زائر أو أحكي لهم حكايتي وقد علقت هنا بعد تفجر الأوضاع في المدينة. حجة لا بأس بها احتفظت بها في ذاكرتي المشوشة.

كانت الفوضى كبيرة في شوارع المدينة، وأعمدة الدخان تتصاعد من هنا وهناك، والمركبات المحترقة في كل زقاق وشارع، لم ينقطع صوت الرصاص ولا دوي مدافع الدبابات وهدير الطائرات، وكأنها صورة من أرض المعركة، لم أرَ مخلوقا أو بشرا سوى جثث المنتفضين الذين قضوا في المواجهة صباح اليوم، صوت الدبابات كان مرعبا وهي تطلق بقذائفها نحو المقار والبنايات التي تَمَتْرَس خلفها الثوار.

البيوت كانت مهجورة تقريبا وكأن ساكنيها قد أخلوها بعد أن

فطنوا أن الوضع سيتفجر في أي لحظة، أو أنهم أغلقوا أبوابهم وكمنوا بداخلها بانتظار جلاء الغبرة، فطرقت أبوابا كثيرة بغية الاختباء من عيون الأمن والحرس الذين بت ألاحظهم من بعيد وهم يمشطون الشوارع والأزقة، وينظرون من خلف حيطان البيوت عسى أن يلمحوا مسلحا أو هاربا من قبضتهم. كنت مرتبكا جدا وأنا أواجه مصيرا مجهولا وسط هذا الخراب، فحياتي أصبحت على المحك، وأدنى شبهة أو شك يتبادر إلى أذهانهم تجاهي فرصاصة في قفا الرأس كافية. ويبدو أنهم تلقوا تعليمات صارمة في خمد الثورة بأي شكل من الأشكال، ولهذا فقد أفرطوا في القتل والتنكيل وسحق أي مقاومة تظهر أمامهم وتدمير البنايات بشكل كامل.

استوقفني أحدهم وكان يرتدي ملابس مدنية، بدا صارما بشارب كث ومسدس يزنر حزامه الجلدي، يحوطه رجال من الحرس الخاص أو الجمهوري، كانوا مدججين بالسلاح وانشغلوا بالتفتيش وتمشيط المنطقة، ارتبكت وارتعشت وجف بلعومي وأنا أحاول إخراج الكلمات، لكنها كانت عصية على الخروج، فزجرني بقوة وطلب هويتي، أعطيته الأوراق بيد مرتجفة وقصصت له حكايتي بكلمات بسيطة، لم ينتبه لي بل انشغل بتدقيق الهوية والأوراق...حقق معي طويلا وكانت إجاباتي مقتضبة ومرتبكة، فهول الموقف ومنظر الرجال المسلحين قد أفقدني توازني، فأمر أحدهم بأن يقتادني إلى المقر للتحقيق معي مجددا.

جرني الرجل من ملابسي بوحشية مفرطة وكأني متهم، لم أنطق ببنت شفة طوال المسافة التي بدت بعيدة بعدما كال لي الجندي سيلا من السباب والشتم وهو يتوعدني بعقوبة صارمة، فوصلنا إلى مركبة بيك آب ودفعني إلى الحوض الخلفي التي ضمّت عددا من المعتقلين، كانوا صغارا في السن وقد رُبطت أيديهم من الخلف ولاحظت أنهم أنوفهم كانت تنزف، ورأيت أحدهم يبكي بحرقة. مسكني أحد الجنود بقوة ولوى يديّ إلى الخلف وربطهما بخرقة، وركلني حتى سقطت على وجهي في حوض السيارة.

* * *

الفصل الثالث

تعرضنا إلى ضرب مبرح من قبل جنود الحرس الخاص، لم أكن أعلم أنهم من هذه الفئة العسكرية، لكني سمعتها من أحد المعتقلين الذين كانوا معي، ويبدو أنه يعرف تلك المعلومة ولا أعلم من أين أتى بها، كانوا قساة جدا وتعاملوا معنا بوحشية مفرطة وكأننا فرائس! حبسونا في غرفة صغيرة تابعة لبناية حكومية التهمت النيران جزءاً منها حتى بانت جدرانها ملطخة بالدخان الأسود، وهيأوها كمقر مؤقت لهم وجعلوها مركز تحقيق للمشتبه بهم من قبل ضباط يرتدون بدلات زيتونية وآخرين بملابس مدنية، لكنهم لم يحملوا أي رتبة عسكرية، لكن الجنود الآخرين كانوا ينادونهم بلقب (سيدي) فعرفت أنهم ضباط رفيعو المستوى جاءوا من بغداد، ربما من الأمن العامة أو المخابرات لا أدري.

كانت الغرفة خانقة جدا بسبب مساحتها الضيقة، لم يكن لها منفذٌ أو شباك، بل كانت عبارة عن زنزانة صماء موحشة، تكدس فيها أكثر من عشرين محتجزا، وبين حين وآخر كانوا يأتوننا بوجبة جديدة من المشتبه بهم، حتى اكتظت وأصبحت لا تطاق. شعرت بدوار شديد وتقيأت أكثر من مرة بسبب الحر والجوع والغثيان الذي أصابني جرّاء ذلك الحبس الوحشي. قضينا ساعات ونحن نصارع الوحشة والحر حتى

أوشك بعضنا على الهلاك وراح آخرون يصرخون بشكل هستيري وكأنهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة.

أخيرا جاء أحد الحراس وبدأ باقتيادنا واحدا بعد الآخر من أجل التحقيق، لكن يبدو أن الغرفة كانت أرحم من غرفة التحقيق وما يتعرض له المشتبه من ضغط وتعذيب، من أجل الاعتراف بالممارسات التخريبية التي مارسها ضد الدولة. وأنا أجزم أن أغلب الموجودين لم تكن لهم علاقة بالأحداث التي حصلت، والفاعلون الحقيقيون إما قضوا نحبهم أثناء المواجهات وأما انسحبوا إلى أماكن أخرى، ولم يتبق منهم سوى هؤلاء المستطرقين أمثالي والذين لا يمتلكون حيلة الهروب أو الاختباء حتى سقطوا كالذباب في المصيدة.

جاء دوري للتحقيق، اقتادني أحد الجنود وجرني ككلب إلى الغرفة، كان الضباط يجلسون خلف طاولات متفرقة، وبدوا غاضبين جدا والشرر يتطاير من أعينهم، لم يكونوا في وضع طبيعي بل الوضع العام فرض عليهم أن ينجزوا مهمتهم بأسرع وقت ليقوموا بتصفية العملاء والمخربين، فالقيادة قد استنفرت قواتها من أجل إخماد الانتفاضة التي قام بها مجموعة من المخربين والخونة على حد تعبيراتهم التي رددوها على مسامعي كثيرا، كانت هناك عصي وكابلات مطاطية سميكة قريبة من أياديهم المعروقة، استقبلوني بالشتائم والسباب قبل بدأ الحفلة، حسبما كانوا يسمونها، رأيت دماء يابسة على الأرضية القذرة، وكذلك الجدران

تلطخت باللون الأحمر، ويبدو أنهم أوغلوا بالضرب كثيرا على الذين سبقوني إلى هذا المكان، لكن الغريب بالأمر أن من تعرض للتحقيق لم يرجع إلى غرفة الحبس مرة أخرى، ولا أدري أين تم اقتيادهم بعد حفلات التحقيق والتعذيب.

كان أحد الضباط شرسا ويبدو أنه يرأس المجموعة، بشارب كث وحاجبين غليظين وشعر أسود فاحم، كانت نظراته نارية وهو ينظر نحوي، ويتكلم بلهجة أعرفها أو سمعتها، تشبه لغة رئيسهم الأعلى! ويبدو أنه ينحدر من نفس القرية التي جاء منها هؤلاء المتوحشون.

حقق معي طويلا وسأل عن أصلي وعشيرتي وسكني وعمل والدي وإخواني وأخوالي وأعمامي وكل عشيرتي، وسبب مجيئي إلى الناصرية، فأخبرته بالحقيقة، لكنه زمجر كالضبع فركلني أحدهم وكان قريبا مني، وجلدني آخر بالكيبل على ظهري، فشعرت بأن حريقا قد نشب فيه، فبتُّ أتلوى من الألم.

أخبرتهم بأن خالي مفقود في الحرب الأخيرة، وأتيت لأبحث عنه في قاعدة الإمام علي، وأبرزت لهم هويتي والأوراق المتعلقة، وكذلك صورة خالي... دققوا بالأوراق لكنهم لم يقتنعوا بتلك السهولة، وأرادوا مني الحقيقة، الحقيقة التي يريدون سماعها وليست ترهاتي وكذباتي، وعدوها مسرحية نسجها خيالي لأمررها عليهم، وجزموا بأني مشارك في عمليات التخريب والحرق وقتل الرفاق الحزبيين، وعليّ

الاعتراف على هذه الممارسات، أنكرت ذلك كله وأقسمت لهم بأني لم أقترف شيئا مما يقولون، زاد غضبهم وانهالوا عليّ بالضرب بالهراوات والكيبلات حتى شعرت بالحرارة تسري بجسدي وكأن نارا قد شبت به وصيرته إلى فحم.

كان طعم اللسع مرا ومؤلما جدا، وكأنها أدوات خاصة خُصصت للتعذيب وإنزال الألم بجسد الضحية، لم تكن أداة عادية تلك التي كانوا يستعملونها في التعذيب، بل مصنوعة من مادة جهنمية تترك أثرا حارقا على الجلد واللحم لتنزل على العظم.

استمر التحقيق والتعذيب ساعات طويلة، وصلت خلالها إلى مشارف الموت وأنا ذلك الشاب غض العود لين العريكة، فانهارت قواي وفقدت الإحساس بالزمان والمكان، ولم أعد أشعر بضرب العصي والكيبلات ولا الركل ولا الصفعات، بل تخدر جسدي وكأن روحي قد فارقت الحياة، توقفوا عن الضرب ورش أحدهم عليّ الماء، فأفقت وكأنني غريق قد خرج لتوه من البحر، فتنفست بقوة وأنا أنظر إلى المكان، لكنهم ما زالوا يقفون على رأسي ومنظر أحذيتهم الجلدية بلون الدم قرب وجهي، تكلموا طويلا عن وضعي وحالتي ولم أفهم من كلامهم سوى... الرضوانية... تكرر الاسم أكثر من مرة وكأنهم حسموا أمري.

نادوا على الجندي الذي ساقني من غرفة الحبس وأمروه بأن

يقودني إلى معتقل الرضوانية، مع بعض المشتبه بهم. فعرفت فيما بعد أن من تثبت إدانته بالاشتراك في عمليات التخريب والحرق والقتل يعدم على الفور ويدفن في حفرة كبيرة، ومن لم تثبت عليه الإدانة يرسل إلى المعتقل. هكذا صنفونا ولم يخرج منا أحد سالما أو نظيفا من التهمة، فالجميع كان متهما حتى لو لم تثبت إدانته. ويبدو أن الأوامر الصادرة من بغداد كانت صارمة ويجب التعامل مع الجميع على أنهم خونة يجب إبادتهم.

* * *

ساقونا كالخراف نحن مجموعة من المتهمين إلى المعتقل الذي لم أسمع به من قبل وأين يقع بالضبط، كنا مجموعة بائسة من المتهمين، وجوه متورمة من اللكمات وأجساد ممزقة بفعل ضرب السياط والهراوات، لم ينقطع أنين الألم الذي يصدر منا، كنا عطاشى ونشعر بجوع قاس، أجسادنا مخدرة من الألم، لقد حولونا إلى بقايا أجساد محطمة في طريقها إلى مكب نفايات بشرية.

لقد قمعوا الثورة بكل قسوة ووحشية، وكأننا بشر فائضون عن الحاجة، وليس للإنسانية نصيب في قواميسهم، بل القتل والتعذيب ومحق كل بشري تورط أو اشترك في تلك العمليات التخريبية التي كانوا يسمونها.

كنت في عالم آخر، أطوف على بيتنا من بعيد، لكني لم أستطع الولوج

إليه، كانت روحي تحوم هناك لأطمئن على أمي التي لا أعرف كيف حالها الآن، لقد بات حزنها مضاعفا وهي ترتقب عودتي التي طالت، وسط تلك المعمعة التي انتشرت أخبارها في الأرجاء، لقد علم الجميع بما حصل بعد انتهاء الحرب من قيام انتفاضة أو ثورة في جنوب العراق، لكنهم لم يعلموا تفاصيلها وما جرى للمنتفضين والمشتبه به، كنا خلف كالوس كبير موحش ومعزول، لم يكن يعلم به أحد سوى المقربين من السلطة وجلاوزتهم. كانت تصفية كبيرة أجرتها السلطات وهي تستنفر جميع قواها الأمنية والعسكرية والمخابراتية من أجل خمد الانتفاضة وسحق المنتفضين.

كان الطريق طويلا ومتعبا وأجسادنا تهتز من أثر الطريق ونحن نقبع في صندوق حديدي كحاوية نفايات، ومع كل هزة تستيقظ جراحاتنا فتزيد الآمنا وتئن أجسادنا من الوجع، وتضطرب أرواحنا المعلقة بين السماء والأرض.

في أحيان كثيرة شعرت بأجنحة الموت وهي تخفق قرب وجهي، وبصيص من النور يأتي من جانب مظلم يلوح في الأفق البعيد، وكأنه نهاية طريق مجهول. لم يكن نورا عاديا بل كان منبثقا من السماء، وكأن هناك من يدعو روحي إلى الخروج من مَحبسي الجسدي لأتخلص من عذاباته وآلامه. كنت في عالم آخر بعيد عن الواقع الذي يحوطني كقبر ضيق، وتفكيري محلق في فضاء مرابض الطفولة البريئة وأنا أتسكع في الأحياء والبساتين مستذكرا أصدقاء الحي ورفقاء المدرسة، كانت

الأحداث التي مررت بها تمرق سريعا بذهني وكأنها قطار يسير بسرعة الضوء نحو النهاية المجهولة التي تنتظرني.

لم نتكلم فيما بيننا، فهول الموقف ألجمنا ونزع ألسنتنا وأصبح كل واحد منا منشغل في معرفة مصيره الذي ينتظره، كان دوي محرك المركبة هو العامل المشترك على مسامعنا. كنا مربوطي الأيدي ومعصوبي العيون، رمونا في ذلك الصندوق الحديدي كأكياس نفايات في طريقها إلى الطمر، عصبوا عيوننا وربطوا أطرافنا كالخراف المعدة للذبح، قبل أن يكدسونا في تلك الصفيحة الحديدية. كانت الحرارة لا تطاق مما جعل الجو خانقا في الداخل، كنا نتنفس بصعوبة وكأن مستويات الأوكسجين بدأت بالتناقص.

بدأنا نسعل بقوة وهي إشارة على الاختناق، لم نكن نمتلك الطاقة اللازمة للصراخ وإنقاذنا من ذلك التابوت الحديدي، فربما يريدون القضاء علينا بهذه الطريقة المتوحشة، أو ربما سنصل إلى المعتقل ونحن جثث هامدة مزرقة اللون.

أخيرا انفتح الباب ودخلت علينا نسائم عليلة ورحنا نستنشق بقوة لتعويض أجسادنا العطشى بالأوكسجين، سمعنا جلبة وأصوات زعيق وهدير محركات، وصوت كعوب الأحذية الجلدية يسحق ذرات الرمل والتراب بقوة، وهمهمة رجال كانوا قريبين منا، تكلموا طويلا ودخنوا السجائر، لقد شممنا رائحتها وهي تتسرب إلى أنوفنا، وقال أحدهم:

- لو لا تعليمات القيادة لدفناهم هنا وتخلصنا منهم هؤلاء الخونة...

- لا أعرف لماذا يجشموننا عناء تسفيرهم إلى السجن، مثل هؤلاء يجب حرقهم أو دفنهم أحياء... ردّ الآخر

- لقد تم سحق التمرد بقوة، القيادة ما زالت قوية بهمة القائد (حفظه الله)..

- لو لم يتم سحقهم لتمكنوا من الوصول إلى بغداد وأسقطوها، تخيل... هؤلاء سيحكموننا!! ماذا سيفعلون بنا...!

- الحمد لله إننا استطعنا القضاء على التمرد وضربناهم بيد من حديد...

ضحك الاثنان وهما يستنشقان الدخان وكأنهما يتلذذان بنشوة النصر الذي حققوه، فراحا يتهامسان ولم أتبين نوع الكلام الذي دار بعد أن ابتعدا عن المركبة، كان الصمت يطبق على الأرجاء ما عدا صوت أزيز الحشرات يأتي من أطراف الشارع، يبدو أنها منطقة زراعية، حيث كان النسيم عليلا ويحمل رائحة الماء والزرع. وربما كان الوقت ليلا، فالهدوء يقول ذلك. هدر محرك المركبة مرة أخرى بعد أن تم غلق الباب الخلفي لها، وتحركت بتمهل وهي تتجه إلى مصيرنا المنتظر.

نمت من التعب والجوع والعطش، فجسدي كان بحاجة إلى راحة أبدية، وليس غفوة قصيرة، فعظامي المحطمة وجسدي المنهك ورأسي

الذي أصبح بثقل جبل بحاجة إلى راحة طويلة قد تمتد إلى سنين، لكن كيف سأواجه المصير المرتقب وأنا في حالتي هذه.

توقفت المركبة أخيرا ولم أشعر بالوقت خلال ذلك، ربما نمت، هكذا خيّل لي، لأن الكوابيس أطبقت على منامي كالعفاريت، وهي تعصف بداخلي كإعصار مدمر، فكانت تنهش روحي من الداخل.

أنزلونا بقوة بعد أن جرونا، سقطنا من مرتفع المركبة على أرض إسمنتية صلدة، فزادت من أوجاعنا، نزعوا العصابات عن أعيننا، فلسعت الشمس عيوننا وأحرقتها، أوقفونا كصف واحدا خلف الآخر، وساقونا إلى داخل معسكر، أو هكذا خيل لي. بدا موحشا، شعرت برائحة الموت تطوف بالمكان، والصراخ يملأ الفضاء، من أين يأتي الصوت؟ ربما خيل لي؛ لأني لم أرَ أحدا بعد سوى المجموعة التي كنت ضمنها، كنا حوالي عشرة أشخاص، شباب ورجال محطمون بفعل التعذيب. كانوا عبارة عن بقايا بشرية، ولم يكن حالي أفضل من حالهم.

بدأ الضرب والتنكيل على طول الطريق الموصل إلى قاعات الحبس، كانت عبارة عن جملونات حديدية موحشة، وغرف متفرقة هنا وهناك، وساحات إسمنتية شاسعة المساحة. كل شيء كان يوحي بالوحشة والغربة، وكأننا في عالم آخر، أقرب بالوصف إلى جهنم.

أدخلونا في إحدى تلك الجملونات، كان المكان عبارة عن مأساة حقيقة، فقد تكدّس فيها مئات من المعتقلين وهم يأنّون من الألم

والوحشة والغربة. أجساد بائسة شبه ميتة حشروها في علبة مصفحة، وكأنها علبة سردين كبيرة كريهة الرائحة.

كانت الرائحة لا تطاق والقيح ينزُّ من الأجساد الواهنة من فرط التعذيب والضرب بالعصي والكيبلات، أوقفونا كصف واحد ودونوا أسماءنا بعد أن أخذوا هوياتنا وأوراقنا الثبوتية، كان كلامهم عبارة عن سباب وشتم وركل ورفس وصفع، رجال أشداد يرتدون الزيتوني وآخرون بملابس مدنية، والجميع كان يحمل بيده آلة تعذيب، وكأنهم جندوا لهذه المهمة الوحشية. ابتعدوا عنا وجاء أحدهم وهو يحمل أنبوبا مطاطيا ضخما وفتح الصنبور وراح يرشنا بالماء، وأمرنا بأن نفتح أفواهنا من أجل التزود بالماء كالحيوانات، كانوا يضحكون بهستيريا وهم يراقبوننا ونحن نفتح أفواهنا، كنا نشعر بعطش قاتل ونحن نحاول أن نتلقف بعض القطرات من ذلك الماء، لم يكن نصيبي وافرا، بل بقيت عطشا، فسرعان ما أغلق الصنبور وأمرنا بالتحرك إلى الداخل.

كان الوضع في الداخل لا يقل مأساوية عن الخارج، أشباح تجوب الفراغ الممتلئ بالأجساد المتعفنة من فرط الحبس، أشخاص عراة أو أنصاف ذلك، برزت العظام بوضوح حتى أصبحوا كهياكل عظمية قابلة للدفن. كان بعضهم يبكي بحرقة، وآخرون يلوكون أوجاعهم وهم منكفؤون على أنفسهم، كان الجميع يدور في دائرة الحيرة والترقب، ينتظرون موعد موتهم في أية لحظة. لقد سقطوا من حسابات الدولة

وأصبحوا في عداد المنفيين، لقد كنا وراء الشمس، ذلك التهديد المخيف الذي كانوا يتوعدوننا فيه إذا ما أسأنا التصرف وخرجنا عن طريق طاعة الحزب والثورة.

اتخذت لي زاوية قذرة جلست عليها وأنا ألعق جراحاتي، منتظرا القادم المخيف الذي يتوعدوننا به، لقد علمت من القريبين مني في تلك الصفيحة الكبيرة، أنهم قد أتوا بهم قبل أيام، من محافظات شتى، من البصرة والناصرية والنجف وكربلاء.... لقد كانت حملة شعواء شنتها السلطة الغاضبة لقمع الثورة، وجيء بهؤلاء؛ لأنهم خرجوا بوجه الظلم وأرادوا إسقاط النظام!

كانت فرية أطلقها أزلام النظام ضد المنتفضين، وأنا أجزم أن أغلب هؤلاء كانوا أبرياء، وساقتهم أقدامهم إلى مصيرهم المحتوم عن غفلة أو عدم تدبر. فالقيادات الحقيقية والمجموعات المسلحة تم القضاء عليها أثناء المواجهات أو تم إعدامهم في وقتها، وما هؤلاء سوى مشتبه بهم أو من مناطق كانت مشبوهة، فجرجروا الأهالي من أجل الإدلاء بالاعترافات وكشف مكامن المنتفضين.

* * *

كانت حفلات التعذيب تجري يوميا وكأنها روتين، حيث كانوا يخرجوننا من أقفاصنا ويجردوننا من ملابسنا ويبدأون بضربنا بالهراوات والعصي والكيبلات، وسط صرخات المعذبين الذين يأنّون من الألم.

كنت أتلقى عشرات العصي يوميا. طعامنا كان سيئا للغاية ومياه الشرب كانت حارة، حياتنا أصبحت كقطعة مأساة كبيرة.

سجن الرضوانية الرهيب كان مأوانا، لقد أطلقت عليه تسمية جهنم؛ لأننا كنا نتلقى العذاب يوميا ونأكل الطعام الرديء كطعام الزقوم ونشرب الماء الساخن، وتسلّط علينا جلادون لا يعرفون الرحمة ولا الشفقة، وكل همهم إنزال العذاب على أجسادنا، حتى راح ضحية ذلك الكثير من النزلاء، حيث قضت أرواحهم وهم تحت التعذيب، فيتركونهم في العراء، أو يقضون نحبهم داخل الأقفاص الحديدية، ويتركون الجثث هكذا حتى تهترأ وتخرج منها الروائح الكريهة، ثم يحملونها بعد ذلك ويقومون بدفنها في مقابر في محيط المعسكر.

أقسى ما كان يمر في ذلك القفص هو الليل الطويل المشبع بالحرارة، كان موحشا وطويلا، مشحون بالوحشة والوجع والغربة، كان أنين المعتقلين يرتفع في الليل، يصرخون من أوجاعهم البدنية والنفسية، يشعرون بالسحق والانهيار، مغيبون عن العالم، منقطعة أخبارهم عن أهاليهم الذين يتلظون بنار الفقد بعد أن يأسوا من البحث في مطامير الأمن العامة ودوائر المخابرات وحتى مراكز الشرطة. كنا منقطعين بشكل كامل عما يجري بالخارج والشهور تجري بتثاقل متعب، ولا نعلم متى ينتهي كل هذا العذاب.

حاول الجلادون من خلال التحقيق أن ينتزعوا منا آخر اعترافاتنا

قبل التوجه إلى المحكمة، كانت هناك محكمة بانتظارنا من أجل البت في أحكامنا، ولا نعلم ما هي هذه الأحكام، هل الإعدام أم المؤبد. كنا نتهامس فيما بيننا ونحن ننسج قصصا من أجل إزجاء الوقت وتضييعه من أجل التخفيف، لقد تعرفت على مجموعة خيرة من الشباب والرجال، كانوا من محافظات متفرقة ساقتهم أقدارهم إلى هنا. وأصبحنا نتطلع إلى فرج قريب يخلصنا من هذا المكان الرهيب، حتى لو حكمونا بالإعدام، فالخلاص بكل أشكاله أرحم من البقاء هنا.

كانت المحاكمات التي جرت بحقنا صورية ومضحكة، حيث أصدر القاضي الظالم بحقنا أحكاما بالجملة، ساقها مزاجه الإجرامي نحونا، وحسبما يراه ضميره المغيّب، فنال قسمٌ منا حكما بالإعدام وآخرون بالمؤبد، ليس عن دليل أو حجة بل كانت عبارة عن مهزلة مضحكة أو أقرب إلى مسرحية هزيلة. فكنت من ضمن المحكوم عليهم بالمؤبد مع آخرين، وتم سوقنا إلى سجن أبي غريب الرهيب. وبدأت رحلة جديدة من المأساة ستستمر سنين طويلة.

كانت لحانا طويلة جدا، وشعورنا كذلك، هيئتنا قذرة وأظافرنا محشوة بالسواد، كنا بقايا بشر خرجوا من كهوف العصر الحجري، فعمدوا في السجن المركزي على حلق رؤوسنا ووجوهنا منعا من انتشار القمل، وأدخلونا في حمامات من أجل إزاحة القذارة التي علقت بنا، ورغم مأساوية سجن أبي غريب، لكنه كان أرحم من معتقل الرضوانية.

تسلمنا الملابس الخاصة بالسجناء وعزلونا في قواطع خاصة، فلا زالت الشبهة ملتصقة بنا حتى في ذلك السجن. لم نكن نلتقي بنزلاء آخرين وكأننا في حبس انفرادي، فشعرت بوحشة رهيبة لم أطق تحملها. كان الجلادون الجدد يوغلون بأذيتنا واحتقارنا وسحق كرامتنا، وينظرون إلينا نظرة توجس وريبة، فكان طعامنا سيئا ومعاملتهم كذلك، كنا منبوذين ومحتقرين، وهذا حال أغلب السياسيين المعتقلين في ذلك السجن، فكل من يناوئ السلطة ويعبث معها يصبح مستهدفا ويضيق عليه الخناق.

لم تكن هناك حفلات تعذيب في سجن أبي غريب كما كانت تجري في معتقل الرضوانية، لكن المعاملة السيئة كانت بصمة واضحة طبعها السجانون على بعض نزلاء السجن في الأقسام الخاصة؛ لأن أغلبهم كانوا من السياسيين وكان فيهم رجال دين شباب وكبار في السن.

كنا خليطاً متبايناً من النزلاء، لكن همنا واحد والتهم متشابهة تقريبا، فجميع من تم شحنهم من المعتقل بعد أن خضعوا للمحاكمة الصورية، هم من المشتبه بهم في المشاركة بالانتفاضة التي حصلت بُعيد انتهاء الحرب.

هذا الانغلاق ضمن أقسام الأحكام الخاصة جعلني متواصلا مع السجناء الأقدمين، كان أغلبهم من رجال الدين الشيعة، تم الحكم عليهم جراء تهم مختلفة، كأن يكونوا من كوادر أحزاب إسلامية

محظورة، أو لهم نشاط سياسي معين، أو كانوا يشكلون خطرا يهدد كيان السلطة. فحوزة النجف، كانت تحت المجهر طوال عقود، معلومات دفعها لي أحد رجال الدين المنفتحين، أثار هذا الرجل اهتمامي وخلب لبي من أول جلسة. كان ينبوعا من المعلومات والأفكار، وذا ثقافة دينية واسعة، وشجاعة نادرة. تميّز بالصلابة والقوة وهو يتكلم بروح ثابتة غير منكسرة. انفتح لي وبسط يده نحوي كأب فاضل، سمع مني طويلا وأنا أقص له حكايتي الغريبة، ابتسم بمرارة على تلك المهزلة، وحوقل كثيرا.

كانت نصائحه لا تنقطع وكأنه واعظ عالي الهمة، فوحشة المكان وغربته لم تثنه عن دوره في النصح والإرشاد، فدوره كرجل دين يحتم عليه حث الناس على الفضيلة والتمسك بتعاليم الدين الحنيف، والشريعة السمحاء. لم أكن بطبيعتي متدينا ولم أهتم بالأمور الدينية أو العقائدية، بل كانت عندي أفكار خاصة بنيتها في فترة مراهقتي وشبابي متأثرا بخالي ذلك الشيوعي العتيد. وكذلك دراستي للفلسفة التي لم أكملها بسبب اعتقالي الأخير. ولهذا كنت مصدوما وأنا أتلقى معلومات بدأت تطرق ذهني للمرة الأولى، فقه وأصول وعقائد وفلسفة إسلامية ولغة عربية... خليط غريب من كل تلك العلوم كان يحملها ذلك الرجل على عاتقه، فكانت طيعة بين يديه كالعجينة وهو يدلي بها بسلاسة جاذبة.

لم يكن يرتدي الزي الديني؛ لأنه كان محظورا داخل السجن، لكنه

اكتفى بثوب طويل فضفاض أبيض اللون ونظيف، واكتفى بوضع الطاقية السوداء (العرقجين) على رأسه، بعد أن تعذر عليه لبس العمامة. تميّز السيد عبد الكريم شبر ـ وهو اسمه ـ بالسماحة والوداعة، وببياض البشرة وكأن هناك نورا يشع منه، ذو جاذبية شديدة وذكاء حاد، فصيح اللسان وقوي الحجة.

له علاقات كثيرة مع الآخرين من النزلاء، يطوف عليهم ويهتم بأمورهم، يجيب عن أسئلتهم ويوضح لهم المسائل التي كانت تراود أذهانهم. مضى على سجنه أكثر من خمس سنوات بسبب نشاطه الديني الذي يبدو أنه قد أغاظ السلطة، فالأخيرة لديها حساسية مفرطة تجاه كل ما له علاقة بالدين والعقيدة، لا سيما عقيدة الشيعة التي تنظر لها السلطة بأنها مصدر خطر وعدّتها متواطئة مع النظام الإيراني؛ لأن الفكر واحد والعقيدة واحدة؛ ولأننا كنا في حرب مع تلك الدولة، فعدّت هذا الارتباط غير المباشر تهديدا لها، فعمدت إلى تصفية هؤلاء الخصوم أو إبعادهم قسرا أو تغييبهم في السجون من أجل تحجيم دورهم واحتواء تأثيرهم القوي على الشارع العراقي.

كان عبد الكريم شبر أحد وكلاء المرجع أبي القاسم الخوئي في بغداد، شخصية لم أسمع بها من قبل ويبدو أنه على قدر كبير من الأهمية الدينية. كنت خجلا عندما أظهر جهلي إزاء تلك المعلومات، وهذا ما صرحت به للسيد، ابتسم الأخير قائلا:

- لا تندب نفسك كثيرا، وأنت معذور على كل حال، فهذا الحال يغلب على شرائح كثيرة من طبقات المجتمع؛ لأن النظام قد عمد وتعمّد إلى طمس معالم الحركة الدينية في العراق، لا سيما النشاط الحوزوي الذي يضطلع به رجال الدين من معتمدي المرجعية والمبلغين وحتى خطباء المنابر.

- ولماذا يفعل ذلك طالما أن الهدف هو ديني بحت، والسلطة مسلمة على حد علمي، فهي ليست من دين آخر، فلماذا هذا العداء؟!

- اعلم جيدا أن الحوزة كمؤسسة دينية لا ترتبط بالسلطة الحاكمة لا من بعيد ولا من قريب، فهي مستقلة تمام الاستقلال، وتدير نفسها بنفسها ماليا وإداريا، والمرجع الأعلى هو زعيمها، والدراسة فيها حرة وغير مرتبطة بالمؤسسات الأكاديمية الرسمية، فلها نظامها الخاص الذي تسير عليها منذ مئات السنين. والمرجع الأعلى هو من يسيّر شؤون الناس الدينية وحتى الاجتماعية، وهذا على حد علمي أمرٌ لم يرق لمزاج السلطات الحاكمة لا سيما الشمولية، فهي تريد الهيمنة والسيطرة على كل مقدرات الناس، فأصبح هَم تلك الأنظمة المستبدة هو إضعاف دور المرجعية والحوزة وإبعاد يدها عن الناس، بعد أن لمست فيها ذلك التأثير الكبير في الشارع.

- لكن لماذا لم نسمع بتلك الأسماء كالمرجع والمعتمد وبقية الفضلاء، أليس جزء من مسؤولية ذلك يقع على عاتقكم؟!

- هناك تكتيم مقصود من قبل أجهزة الدولة الأمنية والمخابراتية والحزبية على نشاط الحركة الدينية بشكل عام والحوزة خاصة، من خلال الترهيب والتضليل الإعلامي، وكل من يتقرب من تلك الحلقة سيكون في دائرة الشبهة، فخشي الناس الخوض في ذلك وابتعدوا قسرا حتى أصبحوا غير ملمين بما يدور في أروقة حوزة النجف ونشاط وكلائها. وخير مثال على ذلك أنا، العبد الفقير الذي لا ذنب لي سوى إني وكيل مرجعية أدير شؤون الناس مع موقعي الجغرافي، وليس لي نشاط سياسيٌ، أو تخريبيٌ ضد الدولة...

- لكن لماذا خرج الناس بُعيد انتهاء الحرب وأعلنوا ثورتهم ضد السلطة، ألم يكونوا شيعة... ورأيت كثيراً من رجال الدين يقودون مجموعات مسلحة وفي نيتهم القتال المسلح!!

- لا أعلم حقيقة ما جرى خلف هذه القضبان، لكن من خلال كلام بعض الإخوة أن هناك انتفاضة شعبية قد حصلت في الجنوب ضد السلطة الحاكمة، وأسباب ذلك معروفة، جراء الظلم المستمر والقمع والتهميش الذي تمارسه سلطة البعث ضد أبنائها لا سيما في الجنوب...

- ولماذا الجنوب بالذات؟ تساءلت مقاطعا

- ببساطة؛ لأنهم شيعة، ولكون الشيعة مهمشين ومضطهدين فأصبح ردة فعلهم هذه المرة عنيفا وثاروا بعد أن لمسوا أن الفرصة قد حانت بعد الضعف والاضطراب الذي اعترى السلطة...

- ولماذا الشيعة مضطهدون ومهمشون؟!، هذا هو سؤالي الجوهري سيدنا...

تبّسم السيد ثم قال وهو يهدأ من روعي وعصبيتي:

- اعلم أن حزب البعث هو حزب علماني اشتراكي ولا يحمل صبغة دينية، والولاء له هو الأساس، وجذور الإنسان هي من تعيده إلى أصوله، فمثلا الشيعي مهما حمل من ثقافات يبقى مظلوما، بينما لا يملك الطرف الآخر هذا الشعور. هذا من الناحية النفسية للفرد الشيعي، وعلى أرض الواقع تعرّض المكون الشيعي إلى إقصاء وتهميش لأسباب طائفية ومناطقية، ولأن الشيعة بطبيعتهم متمردون على الظلم هذا السبب جعل أغلب الحكام ينظرون إلى الشيعة نظرة توجس وريبة، فيعمدون إلى تضييق الخناق عليهم وعدم تركهم يتحركون بحرية لئلا يطيحوا به. فأصبحوا مهمشين ومبعدين عن أركان الحكم إلا في حالات نادرة...

- وإلى متى نبقى ندفع هذه الضريبة الثقيلة، لقد سالت دماء كثيرة في سبيل ذلك، وأنت ترى بعينك وشاهد حي على ما يجري من إقصاء وتهميش وتنكيل وتعذيب وتغييب... نحن الآن مغيبون تحت الأرض ولا نعلم ما يدور خلف هذه الجدران العالية المحكمة، هل تعلم سيدنا أن أهلي لا يعلمون بحالي، ولا يعرفون خبري، وأين أنا الآن! هل تتصور حجم معاناتهم لا سيما أمي التي لا أعلم بحالها الآن، وربما قد

فارقت الحياة من هول الصدمات التي تعرضت لها. صدمة ابنها الذي استشهد في حربنا مع إيران وأخيها الذي فُقد في الحرب الأخيرة، ولحقته أنا وأصبحت في عداد المفقودين أيضا. هل تتصور حجم المأساة على هذه العائلة المسكينة!!

- لا حول ولا قوة إلا بالله، ماذا أقول لك يا بني... هذه المأساة متجذرة منذ مئات السنين، والضريبة التي ندفعها كشيعة هو؛ لأننا نوالي أولياء الله ونتبرأ من أعدائه، وما أعداء الله إلا الحكام الظلمة الذين تصدروا المشهد السياسي كخلفاء وولاة وحكام ورؤساء، منذ العهد الأوّل وحتى عهدنا الحاضر، فهؤلاء ناصبونا العداء؛ لأنهم يرون فينا منافسا حقيقيا وقويا لخلافتهم وحكمهم، فضلا عن الدسائس الخارجية التي يحيكها أعداء الإسلام من الذين يريدون زرع التفرقة والطائفية بين المذاهب والطوائف، ولهذا برزت النعرات الطائفية والتمايز الديني والطبقي والمناطقي، فتحول المسلمون إلى كتل وجماعات يعادي بعضها بعضا وربما يصل الأمر إلى الاقتتال فيما بينهم، والمحزن أن ربنا واحد وقبلتنا واحدة ونبينا واحد وكتابنا واحد... ونشهد الشاهدتين ونصلي الصلوات الخمس ونصوم شهر رمضان ونحج في نفس المكان...أي إننا ذو هوية مشتركة واحدة وهي الهوية الإسلامية، فلماذا هذا العداء والاقتتال فيما بينا... أنا أجزم أن هناك أيادي خارجية خفية متمثلة بدوائر عالمية تعمل على إدارة ذلك الصراع وإدامته، لنبقى ضعفاء إلى ما

شاء الله، والأمة الضعيفة يسهل السيطرة عليها، ونحن أمة الإسلام، تلك الأمة التي بلغ تعدادها أكثر من مليار مسلم في جميع أنحاء العالم، نعيش حالة من الضعف والخواء والتباعد والتناحر بسبب تلك الطائفية المقيتة التي دبت في جسد الأمة مثل السرطان.

لقد تحوّلت أفكاري من الاتجاه الليبرالي الذي كنت أؤمن به متأثراً بخالي وكتب الفلسفة، إلى منحىً دينيٍّ تعبديٍّ، لم يكن تعصبا بل كان انفتاحا إلى الفكر الإسلامي الذي بصرت نوره على يد السيد الجليل، لم أكن أصلي أو أصوم أو أتعبد كمسلم ملتزم، بل كنت مثل ريشة تتقاذفها الرياح يمينا وشمالا، وعدم الاستقرار كان هاجسي وأكبر مخاوفي، وعدم الاتزان الفكري والنفسي كان من سماتي، ولهذا كنت متشبثا جدا بخالي الذي وجدت فيه البوصلة الحقيقية التي توجهني إلى الجهة الصحيحة، متخذا منه مرجعا فكريا لي ومصدرَ إلهام يمدني بالأمل والتفاؤل. لكن بعد غيابه عني بسبب فقدانه في الحرب الأخيرة، شعرت بالتيه مرة أخرى وضاعت تلك البوصلة التي توجهني وترسم لي طريقي في الحياة، لكن الله أبدلها بالسيد شبر الذي أصبح لي نورا أهتدي به وأنا في ظلمات الحبس، فبدأت أبصر نور الإيمان على يديه بعد أن ثبّت في نفسي أعمدة الحياة الحقيقية وأجاب عن جميع أسئلتي الفكرية والعقائدية التي كانت تراودني كشيطان خبيث، فأزحت عن ذهني الشوارد التافهة والشطحات الغبية والأفكار السوداء وعززت ثقتي بنفسي بعد أن وضعني على طريق الله.

كنت هائما في سماء العبث وعدم الاستقرار حتى شعرت بجاذبية ساحرة أخذت بي إلى قواعد حقيقية بعيدة عن الوهم والخيال، فالتبصر في أمور الدين الذي يمثل رأي الله على الأرض، هو أولى الخطوات نحو الارتقاء إليه تعالى، وتيقنت أيضا أن الدين ليس مادة أخروية نلتزم بها ونطبق تعاليمها حتى ندخل الجنة كجزاء، وإنما هو منظومة واسعة من العلاقات والنظم الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والسياسية... بل تدّخل في جميع مجالات الحياة، وهذا هو سر العظمة الذي يحتكم عليه ديننا الإسلامي. مفاهيم وأفكار ورؤى بتُّ أبصرها بتلذذ وكأنني أكتشف كنوزا كانت غائبة عن بصري وبصيرتي طوال سنين عمري المنصرم.

* * *

العزلة قاتلة وخانقة على الجميع، لا سيما جماعة الأحكام الخاصة الذين لا يسمح لهم بالاختلاط مع البقية فضلا عن الزيارات الخارجية، كان أقرب إلى محبس انفرادي كبير معزول عن العالم الخارجي، وكأننا قد دُفنا أحياء في مقبرة جماعية كبيرة، سنين طويلة وأنا لم أخرج من محيطي الذي حُبست فيه، وشوقي لأهلي وأمي خصوصا زاد من معاناتي وقلقي المتفاقم على مصيرهم بعد الأحداث التي جرت بُعيد انتهاء الحرب. لكن هناك أخباراً بدأت تتسرب إلينا بين حين وآخر تقول إن البلد واقع تحت تأثير حصار اقتصادي عالمي، وأن الناس أصبحوا يأنون من الفقر والفاقة، فكل شيء قد شحّ في الأسواق

والأسعار أصبحت مرتفعة ولا تضاهي قيمة العملة المحلية. لقد دخل العراقيون في أتون جديد بعد أن جربوا الحروب وذاقوا مرارتها، أما الآن فعليهم تجربة الحرمان والفقر والعوز.

أصبحت غربتي مضاعفة وحزني شديداً وأنا قابع في محبسي، بعد أن استبعد السجانون السيد شبراً من عنبرنا، وأخذوه إلى مكان آخر، وكأنهم شعروا بخطره وهو يهذب نفوسنا ويغسل أدراننا النفسية وينور عقولنا ويفقهنا في ديننا، وكأنه يعد العدة لمواجهة السلطة بشريحة شبابية واعية وصلبة. كانت أوهام شيطانية لعبت بأذهان القائمين على السجن، ونظريات المؤامرة لم تسقط من حساباتهم، فهم ما زالوا يخشون جانبه رغم قلة حيلته داخل محبسه، حتى وإن وضعوه في غرفة صغيرة لوحده فهو يمثل لهم مصدرا مزعجا لهم ولو كان الأمر بيدهم لتخلصوا منه بأبسط طريقة.

لم نكن نعلم أين أخذوا السيد ولم يطلعونا على ذلك، ودارت أقاويل كثيرة أنهم نقلوه إلى عنبر آخر، أو حُبس في سجن انفرادي، أو أنهم اغتالوه ودفنوه في المقابر القريبة من السجن. كنا في حيرة من أمرنا ونحن نلوك القلق والحزن على مصير السيد الذي كان بمثابة الأب الروحي لنا.

شعرنا بفراغ روحي ونفسي كبير بعد غياب السيد عنا وعن مجالسنا، بعد أن كنا نركن إليه في الصعاب والشدائد وجبر الخواطر والتصّبر على

سجننا، كان يبث في نفوسنا الأمل ومواصلة الحياة رغم الظروف الصعبة التي أحاطت بنا ونحن نصارع الوحشة والانعزال والانقطاع. ملأ حياتنا داخل السجن وعلّمنا كيف نستثمر الوقت بالأمور النافعة، فمدد الحكم كانت طويلة جدا والوقت فائض، والفراغ يقتل النفس والروح ويثبط العزيمة ويشل التفكير ويخمد الحواس، كان هذا الشعور مسيطرا عليّ بشكل كامل حتى بدأت الانهيارات الداخلية تبرز، الأمر الذي دفعني للتفكير بالانتحار تخلصا من عبئ الضياع والتشتت وفقدان البوصلة الداخلية. كان هذا حال أغلب النزلاء حديثي العهد بالسجن، لكن ظهور السيد في حياتنا جعلنا نعيش حالة أخرى وهو يغدقنا بعطفه وروحانيته وكلمات التشجيع والتصبر على تحمل البلوى لحين قدوم ساعة الفرج.

دخلنا في حالة من التيه مرة أخرى وفقدنا الأمل في مواصلة حياتنا داخل السجن، فاعترانا اليأس والقنوط وشعرنا بضعف يعتري نفوسنا لا سيما وأن السجانين بدأوا بتضييق الخناق علينا وتعذيبنا بشكل غير مباشر وكأنهم أوجسوا منا خيفة وما زالت شكوكهم تحوم حولنا وكأن فصول التعذيب في الرضوانية والحبس في سجن أبي غريب لم تروضنا بشكل كاف. فكانوا يكيدون لنا المكائد ويتعمدون في إيذائنا. حتى أنهم ومن واحدة من أساليبهم الخبيثة وضعوا مسهلا في طعامنا حتى أصبنا بإسهال حاد جعلنا نفقد سوائل كثيرة ونحن نتلوى من الألم، وبنفس الوقت قطعوا

الماء عن دورات المياه، فأصبحت الرائحة في عنبرنا لا تطاق. كانت فصول هذه المسرحية لا تنتهي وفي كل مرة يعمدون إلى أسلوب جديد لإيذائنا، واستعملوا حيلاً كثيرة لإثارتنا والتلاعب بأعصابنا.

كان معي في العنبر شاب بعمري أو أصغر بقليل، دائم الالتجاء لي، يتقرب مني ويسمع دون أن يفصح عن أفكاره وما يختلج بصدره، ينظر نحوي كأخ أو رفيق زنزانة واحدة. كان لين العريكة مهذب النفس ويمتلك أخلاقا عالية، لكنه كتوم وغير محب للكلام الكثير، فكان يكتفي بالقليل من الكلام ويميل إلى السماع أكثر. دخل السجن قبل فترة ليست بالطويلة، وحينها لم يبيّن لنا سبب دخوله رغم أن السيد شبر حاول معه كثيرا وأراد إشراكه معنا في مجالسنا الثقافية والدينية ودورات الفقه التي كان يجريها، لكنه لم يبد أي استعداد لذلك واكتفى بالانزواء، وهذا الحال قد شاع كثيرا بين السجناء الجدد، فالصدمة ما زالت آثارها على النفس ووحشة المكان تجبر الشخص على اتخاذ مثل تلك السلوكيات، واعتبرنا أن الأمر طبيعي، لكنه ظل محتفظا بوقاره وهدوئه ودماثة أخلاقه وقلة كلامه.

حكى لي مرة وأفصح عما كان يجول بخاطره بعد فترة كتمان طويلة، وكأنه يريد أن يزيح ثقلا جثم على قلبه طويلا...

- هل تعلم لماذا أنا هنا؟ سأل بصوت خافت وكأنه لا يريد أن يُسمع الآخرين

- لقد سألتك هذا السؤال مرارا ولم تجبني!

- إذن حان الوقت لأحدثك، لكن أرجو أن يكون الموضوع سرا بيننا...

بدأت الشكوك تتسرب إلى نفسي، وتبادر إلى ذهني أن هذا الشاب له علاقة بنقل السيد من عنبرنا، هكذا مرقت تلك الخاطرة بذهني بشكل خاطف وكأنها ومضة ضربت رأسي كالبرق، وعدته بذلك وشجعته على مواصلة الكلام....

ركن إلى الصمت وهو يتفرس بوجهي وكأنه يقرأ أفكاري، تغيرت ملامحه وذهبت عنه سيماء الهدوء والوقار، لقد تحوّل خلال لحظات إلى إنسان آخر، غامض ومجهول ومخيف أيضا... لم يكمل حديثه، وتركني في حيرتي وذهب إلى سريره لينام دون أن ينبس بكلمة، أغضبني تصرفه جدا وددت أن أجره من سريره وأحاسبه على تصرفه هذا، لكني تركته لحاله ومستوى الشك بدأ يرتفع عندي بعد تصرفه الأخير.

في الأيام اللاحقة شعرت أن الشاب بدأ يبتعد عني ويتحاشى الجلوس معي على عكس الفترات السابقة، كان يراقبني من بعيد بنظرات شاردة لكنه يتحاشى التواصل البصري بيننا. توجهت إليه في إحدى المرات وعاتبته على موقفه السابق، لم يُعر أهمية لعتابي وقال: عليك أن تنسى ذلك الموضوع، وذكرته بما كان يريد أن يبوح به في تلك الجلسة، لكنه رفض وقال: لا شيء هناك، مجرد فضفضة أردت البوح بها وانتهى وقتها.

لم أكن مقتنعا بردوده بل ازدادت مخاوفي تجاهه، فقمت بتحذير بقية المجموعة منه، لكنهم استقبلوا كلامي بشيء من الاستخفاف؛ لأنه فوق الشبهات، فهو لم يصدر منه ما يثير الشك والريبة، وهو ضحية من ضحايا النظام البعثي، كحال بقية نزلاء الأحكام الخاصة.

تلك الخاطرة التي عصفت بذهني لم أشك بصدقها، كانت إلهاما غيبيا فتحت لي ثقبا لرؤية ما كان مخفيا، فضلا عن دعوته لي بالكلام وإفصاح ما كان يجول بخاطره، لكن الموقف تغير بسرعة حتى انقلب ضدي وكأنه قرأ شيئا من ملامحي.

ظل البرود جاثما بيننا طويلا، وبقي هو في انعزاله وانقطاعه إلى التعبد، لكنه انفتح قليلا على بقية الإخوة وراح يخالطهم بمودة وهو يحدثهم عن حياته بعد إثارة مزيد من الأسئلة من قبلهم تجاهه. فهمت من خلال ذلك أن حياته عادية ومبررات دخوله السجن لم تكن مثيرة، قصص مستهلكة بتنا نسمعها كثيرا، وكأنه بذلك يريد أن يمد جسور الثقة بينه وبين الآخرين بعد شعوره المتعاظم بأن هناك خطرا من قبلي بدأ يداهمه، فكان عليه التصرف بسرعة لتلافي حدوث مزيدٍ من الشكوك.

أفكار كثيرة بدأت تضرب رأسي المتخم بالتوجسات تجاه ذلك الشاب، وربما بالغت قليلا وأنا أنسج بخيالي حكايات صنعها عقلي المتشكك. راجعت نفسي كثيرا عسى أن أكون مخطئا في شكوكي أو

أنني قد ظلمته دون أن أشعر. ولهذا تركت الموضوع دون أن أعيره مزيدا من الاهتمام.

لكن وبعد فترة تم إخراج الشاب من عنبرنا دون سبب، كان تصرفا غريبا من إدارة السجن نقل نزيل من عنبر إلى آخر دون أن يكون لهذا السلوك سبب أو دافع، لأننا لم نرَ أي مبرر لذلك، أخذ الموضوع بيننا مساحة للنقاش لفترة، ثم تلاشى بعد ذلك، لكن شكوكي لم تزل تضطرب في صدري تجاه الشاب، ولم تخمد نار الريبة والتوجس حوله، فكل المؤشرات تميل إلى كونه مدسوساً من قبل أمن السجن، ولا أستبعد ذلك أبدا؛ لأن هؤلاء لديهم أساليب كثيرة في الإيقاع بكثير من النزلاء، وللأسف ذهب ضحية ذلك السيد شبر، وأنا أجزم أنه رصد تحركاته داخل العنبر وعرف أمره وما يثيره من نقاشات وما يطرحه من مسائل عامة وخاصة، ويبدو أنهم كانوا متخوفين منه، ولهذا أرسلوا جاسوسا ليقفوا على حقيقة نواياه وما يخطط له وما يقوله، حتى قرروا استبعاده من هنا وأخذه إلى مكان مجهول، وبعد أن أكمل الشاب المهمة أخرجوه هو الآخر.

كانت حيلة انطلت علينا للأسف، لكننا لم نفطن إليها إلا مؤخرا، وعلينا أن نحذر من القادم، فلا نعرف ما يُحاك ضدنا من دسائس ومؤامرات للإطاحة بنا واحدا واحدا.

* * *

كان الوقت يمضي داخل السجن ثقيلا جدا وكأنه يجرجر معه أغلالا، وعلينا تمرير الوقت بأمور نافعة حسب وصايا السيد، وألا نبقى مكتوفي الأيدي دون عمل أو تفكير، فكنا نجتمع على شكل حلقات نتدارس في أمور دينية كالفقه والعقائد عما نحفظه في أذهاننا من هذه العلوم؛ لأجل تنشيط الذهن وتحاشي النسيان، فضلا عن تنظيف العنبر بشكل روتيني منعا من انتشار الحشرات والبق والبرغوث التي أصبحت ماركة السجون المسجلة في كل مكان.

مؤخرا لمسنا أن هناك انفتاحا من قبل إدارة السجن تجاهنا، لا سيما قسم الأحكام الخاصة، فالطعام أصبح جيدا والمعاملة خفّ منها الجانب الوحشي، وكفوا عن حياكة الدسائس ضدنا، وبدأوا يعاملوننا بلطف غير مسبوق، ومرروا لنا السجائر بشكل معلن، وكان هناك نوع من التساهل في بعض الإجراءات الأمنية، وأكثروا من إخراجنا إلى الساحات حيث التشميس، كنا في حيرة من أمرنا حول ما يحصل؛ لأن ذلك لم يحصل في السابق بتاريخ السجون العراقية.

هذا الانفتاح جعلنا نحتك ببعض الحراس ممن كانوا قريبين منا، فسألت الجندي جواد الذي كان قريبا منا ويتعاطف معنا كثيرا، عن سر التغييرات الأخيرة التي حصلت لنا... أجاب وهو يلتفت إلى ورائِهِ وكأنه يريد أن يقول سرا:

- لا أعلم بالضبط سر ذلك، فالأوامر جاءتنا من فوق، لكن هناك أخبار في الشارع تقول: إن حربا وشيكة ستحصل.

- حرب! مع من؟

- يقولون: إن أمريكا تستعد لضرب العراق في المستقبل القريب...

- طيب ما علاقة هذا بالتغيير الذي حصل تجاهنا في السجن؟

- لا تستعجل، فهناك أخبار طيبة لكم....

- أية أخبار؟؟

- لا أريد الخوض بالحديث أكثر، ارجع إلى مكانك أيها السجين....

غادرنا الجندي السجان وترك في أذهاننا تساؤلات كثيرة، فماذا يعني أن هناك حربا مرتقبة، وما هي الأخبار الطيبة التي نوّه عنها... هل ساعة الفرج التي تحدّث عنها السيد قد آن أوانها...؟ أين أنت يا سيدي؟ أين أخذوك؟ وماذا فعلوا بك؟ وكل من أسأله من الجنود حوله يقول: لا يعلم شيئا، حتى الجندي جواد لم يخبرنا بالحقيقة، ويبدو أنه لا يعلم بالأمر فعلا؛ لأن الموضوع أمني وفوق مستوى الجنود والسجّانين.

جواد أعتبره من الضحايا أيضا، فهو مغلوب على أمره بين زمرة شرسة من السجانين الذي ينحدرون من مناطق موالية للنظام أو قريبة منه، سواء كانوا ضباطا أو مراتب، إلا هذا المسكين الذي ساقه قدره إلى

هذه الوظيفة، فهو لم يكن شريرا ولا ظالما، وحُسن تربيته على ما يبدو تجعله يتصرف معنا بلطف ولين، وطالما يقول لنا: أنتم مظلومون؛ لأنكم لم تقتلوا أو تسرقوا أو تغتصبوا، فهذه الجرائم عقابها السجن بكل تأكيد، لكن قضاياكم لا تستحق السجن. كان يتكلم بحرية معنا في فترات واجباته علينا، حتى أن السيد شبر نبهه على كلامه لئلا يعرض حياته للخطر، فهذا النوع من الكلام يتشكل عليه مجلس تحقيقي وقد يعاقب عليه بشدة، وربما يُعدم.

لكنه لم يكن يبالي وكأنه قد رمى أحماله على الله وسار في ملكوته مطمئنا، وربما تلقى التسديد منه تعالى وبعثه إلينا لينفس عن كربتنا، ويساعدنا في بعض أمورنا ويمرر لنا الطعام والسجائر وبعض الاحتياجات الأخرى، حتى أنني مرة طلبت منه أن يتواصل مع أهلي ويخبرهم بمكاني، لكنه رفض ذلك بشدة، كون المسألة خطرة وقد تطير رقبته بسبب هذا التصرف.

مرة سألته عن علم رؤسائه بما يفعل لنا كون ذلك من المحرمات التي يعاقب عليها الجندي، فقال ضاحكا:

- يعلمون جيدا، لأن أحدهم يدير تجارة داخل السجن لا سيما في الأقسام الأخرى، فهو يبيع للمساجين السجائر وبعض المواد والحاجيات الضرورية.

- لكنك لم تكن تبيعنا شيئا، بل تعطيه مجانا؛ لأننا لا نملك مالا!!

- أنا كنت الوسيط بينه وبين المساجين، ولهذا كان يعطني جزءا من هذه البضاعة كمقابل، وأنا كنت أعطيها لكم، لكنه كان يغض النظر عن تصرفاتي تلك؛ لأنني جعلته يتربح من هذه التجارة أموالا كثيرة، في ظل حصار خانق، والراتب لا يصمد أمامه سوى أيام قليلة، ولهذا انتشرت هذه الأساليب بين الضباط والمنتسبين بالجيش والشرطة بشكل عام، ولا أستبعد بقية دوائر الدولة.

- ألهذا الحد وصل بنا الحال؟

- وأكثر، لقد أصبحت العوائل العراقية تئن من الجوع والحرمان، حتى باعت أثاث بيوتها من أجل كيس طحين، لقد أصبح وضعنا مأساويا بالخارج. أنت لا تعلم ما يجري هناك ويبدو أنها حسنة لك، فالوضع أصبح لا يطاق...

كيف حال أهلي إذن في ظل هذه الظروف، فلم يبق لهم سوى أخويّ الاثنين، الأكبر مني والذي تركته يعاني من صدمة الحرب الأخيرة ولا أعلم كيف هو الآن، والأصغر كان لين العريكة وضعيف الحال، فهل يقدر على مواجهة غول الحصار ويصارع الحياة من أجل رغيف الخبز، وتحت ضغط الحزن الذي ضرب بيت عبد الواحد بعد غيابي القسري عنهم، وحال أمي التي لا أعلم مصيرها الآن وكيف أصبحت!

* * *

أيقظنا الجندي جواد بقوة وهو يزعق بنا، كان منفعلا ومتعرقا وكأنه قطع مسافة طويلة راكضا، لم نفهم شيئا بسبب أنفاسه المتلاحقة، بلع ريقه وزف لنا بشرى الخروج من السجن. كان خبرا مدويا عمَّ أركان سجن أبي غريب الرهيب، لم نستوعب الأمر وطلبنا منه إعادة ما قال؛ لأننا ظنناه يمزح أو صنع لنا مقلبا، لكنه كان جادا في ذلك، ثم تركنا وغادر المكان.

استبشرنا خيرا بهذا الأمر، ورحنا نهيئ أنفسنا للخروج، لكن لم يكن هناك تبليغٌ رسميٌ من جهة إدارة السجن لنا حول الموضوع، وبقي الحال كما هو أياما طويلة، وكأن جواداً كان يكذب علينا، وقد غاب عنا طيلة تلك الفترة ولم نره بعد أن زفَّ لنا الخبر. لكن وبعد ثلاثة أيام جاءنا جواد وكان حزينا، فقد تم حلق رأسه كليا، وجهه متكدر وتحت عينه اليسرى زرقة وزاوية فمه وارمة، صُدمنا من منظره هذا وألححنا عليه أن يحكي لنا ما تعرض له. فقال بصوت كسير: إنه تعرض للعقوبة وحُبس ثلاثة أيام مع حلاقة الرأس، بسبب إفشاء أمر الإفراج عن السجون، ويبدو أن الكتاب أو البرقية كانت سرية جدا، وأنا انتهكت سريتها وبحتُ معلومتها بعد أن سمعت أحد الضباط يتداول مضمونها مع آخر.

يا للمسكين، أراد إسعادنا بالخبر فحصل هو على العقوبة، المهم أنه خرج سالما من حبسه، لكن يبدو أنه تعرض للضرب والتأديب القاسي،

وأصبح قليل الكلام معنا وعاملنا برسمية وجفاء، فعذرنا حاله وما تعرض له.

بعد أيام من تلك الحادثة تم بثُّ الخبر بشكل رسمي بتبييض السجن من نزلائهِ، كانت فرحة غامرة اجتاحتنا كموجة عاتية، لملمنا أغراضنا وما يخصنا من أدوات شخصية، وبالنسبة لي آثرت تركها؛ لأنها لم تعد تلزمني فأنا سأخرج إلى فضاء أوسع، ولأكون أكثر خفة وحرية ولا أريد أن أثقل كاهلي ببقايا ماض سيئ.

فُتحت الأبواب على مصراعيها للجميع، وهبّ السجناء كأمواج بشرية كبيرة غطت المساحات الواسعة من باحات السجن، كنت أبحث عن السيد شبر في صفوف المهرولين، فالجميع كان منشغلا بنفسه وهو يحاول الوصول إلى بوابة الخلاص بأسرع ما يمكن، فربما يغيّر النظام رأيه ويعيدهم إلى السجن مرة أخرى، أو أنهم كانوا متعطشين إلى ماء الحرية، إلا أنا فقد كنت منشغلا بالبحث، أسأل هذا واستفسر من ذلك، حتى السجانين الذين كانوا يقفون على الجوانب وعلى الجدران العالية، وهم يضحكون لذلك المنظر المضطرب، كانت إجاباتهم واحدة: لا يعرفون شيئا عنه.

كان أفراد مجموعتي ترافقني وتحثني على الخروج، وانشغلوا هم أيضا بالبحث والسؤال عن السيد، ولم نحصل على إجابة، فخرجنا والحزن يثقلنا رغم الفرحة التي طغت في كل الأرجاء، وخمّنت أن السيد

قد تمت تصفيته في مكان ما، ولا يعلم سوى الله أين مكانه الآن، تبادلنا العناوين فيما بيننا بغية استمرار التواصل لاحقا.

تغيّرت معالم كل شيء تقريبا، المباني والشوارع خرائط المناطق انحرفت مساراتها، وتبّدلت أشكالها، هناك مشاهد ترابية عمّت الأمكنة، وذهب عنها الوضوح والبريق، أشكال الناس تبّدلت وأخلاقهم تغيّرت، وآثار العوز والجوع والحرمان واضحة على سيماهم، خائفون مضطربون هاربون من وحشة الحياة وقساوة العيش، ولم أرَ أملاً يبرق في أعينهم، بل رأيت شرودا وضياعا وتذمرا.

كانوا ينظرون نحوي بعيون مريبة ونظرات متشككة وكأني قادم من وراء العالم، وفعلا فإنني كنت قادما من خلف عالم الوحشة والانعزال، ذقن طويلة وشعر متساقط وخدود ضامرة وعيون حزينة وفم تساقطت منه أسنان كثيرة، نحيل الجسد أصفر البشرة. إذن لهم الحق بأن ينظروا نحوي بتشكك وتقزز أيضا.

وصلت إلى منطقتي البائسة، والتي تغيّرت ملامحها هي الأخرى، لم أستدل جيدا على الأزقة التي تؤدي إلى بيتنا، كنت كمن أدور في دوامة، حتى توقفت للسؤال، فقصدت الشيوخ أو كبار السن؛ لأنهم أقدم، رأيت أحدهم يجلس على كرسي أمام داره، يرتدي كوفية كوّرها على رأسه، يراقب صبية الزقاق كيف يلعبون بالكرة، يقبض على عصى للاتكاء ولكز الكرة كلما دنت منه، مع كلمات توبيخ وزجر، يرتدي

نظارة سميكة العدسات، سلّمت عليه، بصوت واهن، لم يردّ السلام ويبدو أن صوتي لم يصل إليه، أو أنه كان يشكو من ثقل في سمعه. وقفت أمامه فطالعني من فوق إلى تحت باستغراب، كان فاغرا فمه وكأنه مندهش. تفضل... قالها بصوت أشبه بالزعيق، وهو لا يقصد ذلك، بل ظهر أنه فعلا ثقيل السمع. أخبرته بمرادي ووجهتي بعد أن عرّفت عن نفسي، غرق في ذكرياته كمن يستدعيها إلى الذاكرة الحاضرة، وضع أصبع السبابة بين أسنانه، وهي عادة كبار السن حينما يريد استذكار أمرٍ ما، فتفرّس بي مرة أخرى وصاح...: أنت ابن عبد الواحد.... فقلت: نعم، أنا خضر، ولده الأوسط.

بكى بكاء شديدا وهو يعصر عينيه بكوفيته، فجرني إليه وقبّلني بقوة، وأجلسني قربه، وصاح إلى الداخل من خلال الباب الموارب على زوجته، فظهرت امرأة عجوز محدودبة الظهر، وقصّ لها الحكاية بصوت عال، لطمت وجهها وضربت صدرها وتلقفتني بيدها، وهي تحتضنني وتبكي، لقد شممت منها رائحة أمي. رائحة المسك والبخور والقرنفل، تلك الرائحة المطبوعة على (شيلات) العجائز، كأنها علامة مسجلة لهن. فسألتها عن أمي؟

أطرقت طويلا ثم بكت، وبكى الاثنان على حالي ووضعي، ماذا هناك؟ ما الذي حصل لأهلي، أمي، أبي...إخوتي؟ تظاهر الشيخ بالتجلّد فقال وكأنه يزف خبرا مفجعا، أبواك ماتا منذ زمن بعيد،

إخوتك تفرقوا هنا وهناك، ولا نعلم أين ذهبوا...لقد ظن الجميع أنك متَّ أثناء الانتفاضة، ولهذا لم يتحمل خبرك أحد، فأصيبت أمك بالشلل، وتوفيت بعد فترة، ثم لحقها عبد الواحد بعد سنتين. مصيبة كبيرة ألمت بذلك البيت.

دارت الدينا بعيني بشكل مخيف، وعصف برأسي صوت أشبه بالضجيج، لم أعد أسمع كلمات الشيخين، فقط شفاههم كانت تتحرك ببطء، لقد أصبت بالصمم، هول الصدمة أفقدني كياني وتوازني وسمعي وبصيرتي حتى خدّرت كل حواسي، وقعت مغشيا عليّ على الرصيف القذر، ثم سمعت صرخة اخترقت سمعي بقوة، وهذا كان آخر ما فطنت له قبل الإغماء.

* * *

كان كل شيء أبيض، الحيطان والسقف والأرض والأشخاص، هل أنا في الجنة، هل متُّ. كانوا يتحركون كالأشباح ويتكلمون بصوت أشبه بالصدى، رؤيتي كانت مشوّشة، ولهذا لم أتبين أشكالهم، بل كانت أشكالا ضبابية.

محاليل وريدية كثيرة كانت معلقة فوق رأسي موضوعة على حمالات حديدية، شعرت بالارتواء وأنا أراقب السائل ينفذ إلى جسدي ببطء، بدأت أستعيد وعيي وذاكرتي، توضحت رؤيتي شيئا فشيئا، حتى فطنت أنني في مشفى حكومي.

كانت هناك ممرضة قريبة مني منهمكة في عمل مع مريض آخر، ناديتها بصوت واهن، هبّت مسرعة نحوي. فسألتها: أين أنا؟ وماذا حصل؟ ردّت.. في المستشفى العام، جاء بك بعض الأشخاص إلى هنا، كنت في حالة يرثى لها، فاقدا للوعي وتعاني من هزال شديد وضعف عام. طيب أين هم الذين جاءوا بي إلى هنا؟... لا أدري، ربما في الخارج... ردّت تلك الممرضة ثم ذهبت لإكمال عملها.

بقيت راقدا في تلك المشفى أسبوعا كاملا، وخضعت لعلاج مكثف فضلا عن السوائل الوريدية التي لم تنقطع بسبب الجفاف الذي كنت أعاني منه، والضعف العام الذي نخر جسدي بسبب حبسي الطويل، وكذلك سوء التغذية.

كان الطبيب الاختصاص يعاود زيارتي كل يوم تقريبا من أجل الاطمئنان عليّ ومراقبة صحتي التي تحسنت قليلا، وفي الأيام الأخيرة استبشر خيرا بأن الأمور أصبحت طيبة وأن جسدي بدأ يتعافى. خلال الأسبوع جاء الأشخاص الذين نقلوني إلى المشفى، أكثر من مرة، وعرفت أنهم أبناء ذلك الشيخ صاحب النظارة، كان جارا لنا لكني لم أتذكر اسمه، ويبدو أنه كان صاحب والدي، أو رفيق زقاق، أو مقهى.

كان موقفا شهما منهم على تحملهم كل هذا العناء، فضلا عن المصاريف. انسابت الدموع من عيني دون شعور بعد أن تذكرت مصير أهلي، لقد كنت أتوقع أن يحدث هذا، لا سيما أمي التي لم

تتحمل وقع الصدمة، فثلاث ضربات على الرأس ليست سهلة على كيان رهيف ضعيف كأمي، أكيد لا تتحمل. ولحقها أبي بعد أن شعر بالفراغ والفقدان، فهو لا يتحمل فراقها، ويبدو أنه عانى ما عانى بعدها. لكن أين ذهب إخوتي؟ يجب أن أتحرى أمرهم بعد أن أخرج من المشفى سالما.

يجب عليّ أن أمسك خيطا يوصلني إلى إخوتي، أقربائي مثلا، فهم كثر ومتوزعون في مناطق متفرقة من العاصمة. خرجت من المشفى وأنا أشعر بتحسن، لكن الدوار ما زال ملازما لي، ويبدو أنني بحاجة إلى مزيد من المقويات بسبب مشاكل التغذية القديمة التي تعرضت لها أثناء مكوثي في السجن.

بدت لي الحياة غامضة وصعبة ولم أتكيف معها بسهولة، فالنفوس غير النفوس التي تركتها، والطبائع بدت لي غريبة ومنفرة بنفس الوقت، شعرت أنه هناك صراع يجري في مفاصل المجتمع، طبقية مقيتة، فقر مدقع، تشرد وشذوذ، فساد بكل أنواعه، فضلا عن هيمنة السلطة على كل المقدرات. لكني أحسست أن السلطة بدأت تهرم وكأنها في مراحلها العمرية الأخيرة، فلم يكن هناك تشدُّد مثل السابق، والأمن غير مستتب بشكل محكم، والفوضى عمّت كل شيء، فالحصار قضى على الحرث والنسل، وعصف بالجميع، وبدأ يقوض أركان السلطة التي وكأنها تلفظ أنفاسها الأخيرة لا سيما وأن هناك أخبارا تنذر بحدوث حرب

محتملة قادمة. فالشارع مضطرب ويتحدث عن ذلك، والدولة يبدو أنها تعد العدة للمواجهة والمنازلة.

سكنت في فندق صغير بائس، بعد أن طفت على بيوتات أقربائي، حكيت لهم عن مصيبتي والفاجعة التي ضربت بيت عبد الواحد، تأسفوا لحالي كثيرا وأمدوني ببعض المال، سألتهم عن إخوتي، ويبدو أنهم تفرقوا إلى أماكن متفرقة ولا يعرف لهم عنوان. قالوا: إنهم تزوجوا بعد وفاة الأبوين وباعوا البيت واقتسموا ماله وكل واحد أخذ حصته بعد أن يأسوا مني، فحسبوني ميتا. كان قرارا أنانيا منهم، فهم لم يفكروا بأخواتهم المتزوجات، وحصصهن من الإرث، هكذا فهمت من كلام الأقارب.

عليّ أن أعمل؛ لأتمكن من تمشية أموري، فالمال سينفد في نهاية المطاف، وسأجد نفسي في الشارع مرة أخرى كالمشردين. لكني لا أملك مهنة تدر عليّ مالا، ولا عندي طاقة الشباب حتى أتحمل أعمال العتالة والبناء والأشغال الجسدية الشاقة. فلم يكن أمامي سوى بيع السجائر، لكنها تحتاج إلى رأس مال جيد حتى أتمكن من الوقوف على قدمي في سوق العمل. كانت السجائر سلوتي في الليالي الطويلة وأنا قابع في تلك الغرفة العفنة من ذلك الفندق الرخيص، لم تكن سجائر بالمعنى المعروف لكنها كانت عبارة عن لفافات ورقية محشوة بالتبغ، وهذا أرخص ما يكون في السوق، لكي أحافظ على ما تبقى لي من مال.

قلّبت أوراقي التي كنت محتفظا بها من أيام السجن، خواطر وذكريات وملاحظات عن المحاضرات التي كان يلقيها علينا السيد أثناء حلقات الدرس التي يديرها. تذكرت السيد ووجوده المبارك بيننا، ونفحات الإيمان والروحانية التي كانت تحفه وهو يتماهى معنا كصديق مقرب أو أخ عزيز. نهايته المأساوية الغامضة لطالما أقضت مضجعي، كنت أفكر به كثيرا بسبب تأثري بشخصيته العملاقة الجاذبة وجانبه المهيب. قرأت أوراقا كثيرة في تلك الليلة، حتى عثرت على أوراق حملت عناوين رفقائي بالسجن. واحد منهم كان من بغداد أما الآخرون فكانوا من محافظات جنوبية، والوصول إليهم صعب بسبب ظرفي المالي، فالسفر يحتاج إلى مصاريف كثيرة وأنا لا أملك إلا النزر اليسير. فقررت الاتصال بالشخص الذي يسكن بغداد، لقربه وسهولة الوصول إليه.

وطئت أقدامي منطقة أخرى، لم أزرها من قبل متتبعا نقاط الدلالة التي حددها لي ذلك الشخص، كان مشوارا صعبا وأنا أتعثر كالطفل في مسالك مجهولة، تاهت بوصلتي وأصبحت أدور في دوامة لا نهاية لها، سائلا هذا ومستفسرا من ذاك، حاملا حقيبتي الجلدية على كتفي كالمهاجر. كانت النية في التواصل مع ذلك الشخص هو من أجل اقتراض بعض المال، فهو أكيد سيساعدني في تخطي أزمتي المالية، لقد كنا رفقاء سجن على مدى سنين طويلة. وكنا قريبين من بعضنا البعض، نتسامر ونتحادث ونذاكر دروس السيد ونتبادل الآراء، ونتشاطر الذكريات.

لم تسعفني قدرتي الذهنية ولا تركيزي على الاستدلال على المكان، فالضياع عصف بنفسي وأربك كياني وأفقدني توازني، فقررت الرجوع إلى ملجأي العفن لأركن إلى وحدتي وبؤسي وأجتر الذكريات وأحش السجائر، ثم أفكر بطريقة أخرى أكثر نفعا. وأثناء عودتي مجتازا سوق تلك المنطقة، لمحت لافتة عُلقت على زجاج فرن صمون، يطلب فيها عاملا. كانت فرصة ثمينة شعرت أن القدر ساقها لي.

وقفت بباب الفرن وأنا أتطلع إلى الداخل، كان هناك عمالٌ يتحركون بسرعة كالنحل في أرجاء الفرن، ولمحت رجلا يجلس خلف طاولة يعد نقودا، كان عجوزا بارز البطن، يرتدي دشداشة بدت قذرة قليلا، ويضع على رأسه طاقية بيضاء(عرقجين)، تقربت منه بعد أن ألقيت عليه السلام، رفع رأسه ونظر نحوي بعينين ثقيلتين، فقلت.. جئت بخصوص اللوحة، مشيرا إلى شباك الفرن. نظر إلى نفس الاتجاه وتذكر أنه يريد عاملا، سألني بصوت خشن أسئلة كثيرة تخصني شخصيا، فحكيت له عن حياتي بشكل مقتضب، ولم أتطرق إلى موضوع سجني، فمن المؤكد أنه سيطردني.

لم تكن لي خبرة سابقة بعمل الأفران، تنّهد على جوابي هذا بعد سؤاله الذي دار حول هذا العمل، تفرّس بي طويلا وكأنه يسبر غوري، فقال... سنجربك وبعدها نرى. طرت فرحا وأنا أشكر الحاج على موافقته.

تسلمت العمل من فوري لكيلا أضيّع الفرصة، كانت مهمتي هي بيع الصمون على الزبائن بعد أن يخرج من نار الفرن، كنت مرتبكا وأنا أخطو أولى خطواتي على طريق العمل، كان الجميع يراقبني وكأنهم وضعوني في اختبار، وينتظرون فشلي. تحديتهم وبذلت جهدا مضاعفا رغم سوء حالتي الصحية وضعفي. والدوار سرعان ما عاد لي وبتُّ أترنح كالسكران. لاحظني الحاج وقال...: يبدو أنك متعب وجائع، هل أكلت شيئا اليوم؟ كلا... لم آكل شيئا، لكن لا بأس سأواصل العمل.

أوقفني عن العمل ودفع لي مبلغا بسيطا وأمرني بالذهاب إلى المطعم المجاور لأتغذى بشكل جيد. كانت التفاتة أبوية من هذا العجوز الطيب. أكلت بشراهة عند مطعم الفلافل القريب. شعرت بالشبع وأعدت توازني، بدأت أرى بوضوح بعد أن دبت الطاقة في جسدي من جديد، فعاودت العمل بهمة ونشاط.

كانت هناك مشكلة وهي المأوى، فأين سأبيت الليلة والفندق بات بعيدا عني، فلا يسعني الذهاب والرجوع كل يوم، فأجرة مركبات النقل ستستنزف أجرتي كاملا. فأخبرت الحاج بذلك وطلبت المبيت عنده في الفرن، مانع بشدة بعد أن امتعض بعض العمال، وسوسوا برأسه بأني غريب عنهم ومبهم الجانب، وفي الفرن بضاعة ومواد وأدوات ثمينة، فلا يمكن أن نأتمنه عليها، كان قرارهم صحيحا ومنطقيا، لكنه لم يكن

يصب بمصلحتي، شرحت لهم ظرفي ودفعت لهم ضمانات كهويتي الشخصية مثلا، ليحتفظوا بها.

أخيرا وبعد شد وجذب وافق الحاج على المبيت في الفرن، غرفة صغيرة في الطابق العلوي منه، شكرته كثيرا ووعدته بأني سأكون أمينا ووفيا له ولفرنه. وبالأصل كانت الغرفة عبارة عن مخزن قديم، تكدست فيه أغراض فائضة عن الحاجة وأكياس طحين فارغة ومكائن عاطلة، المهم أني شرعت في توضيبها وتنظيفها ورمي الفائض منها، وقد مد لي الحاج يد المساعدة مرة أخرى فزودني بفراش وبطانية وقال: سأجعلك حارسا على الفرن أيضا، مع أجرة إضافية. طرت فرحا لهذه النعمة، شكرته كثيرا على عطائه ورعايته، جلس بقربي وهو يتأمل حالي بحسرة، ثم قال:

- ليس لي أبناء، فذريتي كلها بنات، وأنت بمثابة ابني الذي لم أنجب... لقد رقَّ قلبي حينما رأيتك وكأني أعرفك منذ زمن، فأنت طيب القلب صافي النية، وهذه ميزات ندرت في زماننا الأغبر هذا...

- يشرفني ذلك أيها الحاج الطيب، وسأكون عند حسن ظنك بي...

ربت على كتفي ونهض وهو يدعو لي بالتوفيق والسداد. كانت كلماته أبوية نابعة من قلب كبير، وقبل أن يغادر وضع بقربي كيسا وقال هذا عشاؤك، فأنت لم تأكل منذ ظهر اليوم. شكرته مرة أخرى ورافقته إلى الخارج، لكني استوقفته قائلا:

- حجي، هذا الوضع مؤقت لي، حينما تتيسر أموري سأجد بيت صغيرا أستأجره.

- لا تحمل هما، في حينها سنجد لك بيتا....

وقبل أن يغادر التفت نحوي وسألني:

- هل أنت متزوج؟

- كلا.. لست كذلك، لم يكتب الله لي هذا الرزق بعد.

- سيرزقك الرزاق ببنت الحلال بإذنه تعالى...

- شكرا لدعواتك أيها الحاج الطيب..

* * *

كان الفرن يقفل أبوابه أمام الزبائن عند العاشرة ليلا تقريبا، وبعد ذهاب العمال أشرع أنا بالتنظيف استعدادا لليوم التالي، ثم أهيئ الطحين ولوازم العجينة، وأتفقد مكان النار والوقود وبعض التفاصيل الصغيرة الأخرى. بعدها أصعد لغرفتي وأستعد للراحة واجترار الذكريات والتفكير بالمستقبل، ثم أنام لأصحو مبكرا على صوت العمال من جديد.

كان روتيني مزعجا وغير مريح والجلبة التي تثار في الفرن كل يوم من قبل العاملين، كان الحاج يراقب حركتهم من بعيد دون تدخل، فهو لا يمارس سطوته عليهم، بل تركهم يأخذون راحتهم، لكن عندما يخرج الوضع عن السيطرة يقول كلمته الفصل ويسكت الجميع. كان أغلبهم من الشباب ما عدا الفرّان، فكان كبيرا بالعمر ذا خبرة جيدة في شوي

العجين، لم أكن أحتك بهم كثيرا؛ لأني منشغل ببيع الصمون، أي إن تعاملي أكثر كان مع الزبائن.

كانت هناك فتاة تتردد على الفرن بشكل يومي تقريبا، تضع على رأسها العباءة الشعبية، ذات جمال متوسط ذي سحنة جاذبة، بدا عليها الاحتشام لكنها كانت تنظر نحوي بفضول، وكأنها تريد سبر أغواري كمثل تاجر يحاول تقييم بضاعته عن كثب وبتركيز، بعدها يقرر هل تستحق الشراء أم لا.

لم أكن بتلك الجرأة التي تجعلني أتجاذب معها أطراف الحديث، فليس لي ماض مع النساء، وخبرتي تكاد تكون معدومة في التعامل معهن، فكنت أتخبط حينما تصوّب نظراتها نحوي وكأنها ترمي بسهامها لإيقاعي، فأرتبك وأتعثر ويتعرق وجهي وينعقد لساني تجاهها. كان هذا الأمر يضايقني كثيرا، فبعد أن بلغت الثلاثين سنة، لا بد لي أن أحيا حياة جديدة وأنسى الماضي، رغم استحالة صفحات ذكرياتي أو محوها من ذاكرتي المعبأة بالألم والقهر والظلم.

بدأ الانسجام يحصل بيننا من خلال النظرات الخاطفة والابتسامات المسروقة بعيدا عن فضول العمال.

ترددها المستمر على الفرن أثبت لي أنها تريد التواصل معي، لكن حيائي المفرط وترددي المخجل أخرّ ذلك فترة طويلة، شعرت أن هناك عيونا تراقبني وكل خطوة غير محسوبة الجانب ربما ستكون عواقبها

ليست بصالحي، وأنا غريب في منطقة ليست منطقتي، فعليّ إذن أن أتأدب احتراما للمكان وصاحبه.

أخذت تلك الفتاة مساحة من تفكيري، فحينما كنت آوي إلى فراشي تتراءى لي صورتها أمامي، ابتساماتها، نظراتها وسؤالها الأخير عن اسمي. بدأت تقتحم منطقتي بقوة وهي ترسم في مخيلتها أنني فارسها المستقبلي، وهي لا تعلم أنني بدون مستقبل. أخبرتها بأن اسمي خضر... جميل، ردّت كمجاملة، وأنا زهرة. هل أنت غريب عن هذه المنطقة. نعم، أجبتها، لم يمضِ لي سوى بضعة شهور هنا، أنا غريب، وغربتي داخلية. قلت مع نفسي. كانت حواراتنا مقتضبة وقصيرة، لا أنكر بأنني أعجبت بها وبجاذبيتها، لكن إلى متى يبقى الحال هكذا. تشجعت وطلبت منها رؤيتها في مكان آخر، أبدت رغبتها بذلك وحددت لي المكان والزمان.

استأذنت من الحاج من أجل الخروج، فلدي مشوار يستغرق ساعة، استغرب طلبي هذا وسأل عن ذلك، مشوار خاص، ثم أردفت، عليّ أن أذهب لألتقي بصديق قديم تذكرت عنوانه. سمح لي بذلك وطلب مني عدم التأخر.

كان اللقاء في حديقة عامة، أشجار وخضرة وأزهار جميلة، عصافير تزقزق وفراشات تحوم هنا وهناك، لم أجلس في مثل هذا المكان منذ أكثر من عشر سنوات، فالمناظر الطبيعية كادت ذاكرتي تنساها بعد أن تعوّدت على الجدران الصماء، والقضبان الحديدية ورائحة العفونة.

كانت زهرة كالزهرة المتفتحة، متدفقة وحيوية، وينبعث منها عطر طيب، فقلت لها: أنت اسم على مسمى. ضحكت على استحياء، ثم قالت لي.. أعتب عليك، أكثر من شهرين وأنا أتحايل عليك وأنت جامد كالحجر!!... اعذريني، فالمكان غير مناسب، والوضع لا يسمح بذلك... أسامحك هذه المرة، قالت بتغنج عذب، اسمع خضر، أنا فتاة يتيمة الأب، ولي إخوة صغار، أمي هي من تعيلنا، تصنع الكبة وتبيعها على الحي، حالتي فقيرة لكني أبية وشريفة، سمعتي كالمسك في الحي الذي أسكن، حينما عثرت عليك، لم تخطفني وسامتك، فأنت لست وسيما... هههههه... لقد رأيت روحك وشعرت بقلبك، فوجدتك صافيا ونقيا، وإحساس المرأة لا يخيب.

إلى أين تريدين الوصول؟... سألت ببلاهة... إلى قلبك أيها الغبي.. ردّت مازحة... بهذه السرعة والسهولة.؟ سؤال غبي آخر... يبدو أنك من النوع الخام، ليس لديك خبرة في النساء، ولا كيف تتعامل معهن!!... نعم، أنا كما قلتِ.

تكلمنا طويلا عن حياتنا الماضية، لكني أخفيت عنها ماضيي الأسود، تلك القطعة المأساوية من حياتي، أخفيتها عنها لكيلا تنفر مني، بعد أن أحسست بالقرب منها والتعلق بها. كانت أريحية، بشوشة، حاضرة النكتة خفيفة الدم، ذكية وذات شخصية قوية.... هل أنت متخرجة من مدرسة، معهد جامعة؟!! تنهّدت طويلا، وأجابت بالنفي،

لقد تركت المدرسة وأنا في الصف الخامس العلمي، لأساعد أمي بعد أن لقي أبي حتفه في مشاجرة مع أحدهم... رحمه الله تعالى، أجبت متأسفا...غيرّت الموضوع وقالت.. أنت وحيد وأنا كذلك، لماذا لا نكسر هذا الروتين ونخرج من قوقعته. كيف؟ سألت. ترددت بالإجابة ثم قالت.. نتزوج، أنت لا تملك مأوى وسيكون بيت أمي مأوى لك، وتستطيع أن تستكمل حياتك... بهذه البساطة؟ سألت بعفوية طفولية... غضبت وقالت.. لماذا تصّعب عليك الحياة، خذها سهلة وستكون كذلك.

صمتُّ طويلا وأنا أفكر في عرضها، كان عرضا مغريا لشاب مشرد مثلي، زوجة مميزة وبيت مستقل، لكن اندفاعها نحو الموضوع أجج بداخلي هواجس وشكوك، الإلحاح يجب أن يكون من طرف الرجل، هذا هو نظام العقل الشرقي، والفتاة تتمنع لتعزز مكانتها، فالمفهوم السائد أن اندفاع المرأة نحو الرجل سيقلل من قيمتها. كان عقلي يضرب أخماسا بأسداس وهو يحلل نظريات العقل الشرقي التي يحاول تطبيقها على مثل حالات كهذه.

كانت تنتظر جوابا وهي تنظر نحوي باستغراب، ولم تدرِ أني أجري تحليلات فارغة تدور في عقليتي المتخلفة. نظرت لحالي عن كثب، فأنا شبه مشرد، لا أملك مالا، ولا مأوى، ولا أهل ولا عشيرة، أقبع بغرفة عطنة صغيرة فوق فرن متواضع، ليس لي تاريخ مشرف أو حاضر مستقر

ولا مستقبل مشرق، فما أفضليتي عليها.!!... موافق. أجبتها وأنا أنسف كل الأعراف والتقاليد التي كبّلت عقلي وكياني، مكسرا قيود العقل الشرقي المتخلف، ضاربا القيم السائدة والمعمول بها في مثل تلك المواقف عرض الجدار.

فرحت زهرة واغتبطت وتوردت وجنتاها من الخجل، وراحت تتكلم بتدفق سريع وكأنها ينبوع من الكلام، عن نفسها وماضيها وحاضرها وحتى مستقبلها، واستعرضت لي محطات حياتها وما مرت به من مأساة عصفت بها وبأسرتها.

تمت الخطبة بحضور الحاج صاحب الفرن بعد أن فاتحته بالموضوع، فأبدى استعداده لخطبتها لي، وكأنه وليُّ أمري، حضرنا الخطبة مع عدد من عمال فرن، كانت الجلسة بسيطة وغير متكلفة، أهل زهرة بسطاء طيبون، لم تمانع أمها طلبها، طالما أني رجل وسأكون سندا وحاميا لها، ويكد عليها.

كان رأي زهرة بأن نسكن في بيتها، غرفة في الطابق العلوي، تمنعت في البداية فما زالت جذور العقلية الشرقية موجودة، لكن رأيها هو الغالب؛ لأنه كان صحيحا، فليس لدي مورد مادي قوي حتى أستأجر بيتا، ومن غير المعقول أن أجعلها تسكن معي في غرفة مخزن الفرن. استسلمت لقدري ودخلت قفص الزوجية بإمكانية بسيطة تكفل بها الحاج صاحب الفرن الذي ساعدني كثيرا في هذا الأمر.

حياتي أصبحت هانئة ومستقرة بعد أن ذقت حلاوة الزواج، وأحاطتني زهرة بحنان فائض ورعاية متكاملة، توردت حياتي وتلونت أيامي بعد أن كانت قاتمة سوداء. وعملي في الفرن ما زال مستمرا، كنت أساعد أمها في عملها، لأعينها على معيشتها الصعبة، وكذلك رعاية أطفالها الصغار الذين تعلقوا بي كأخ كبير أو أب حنون.

* * *

كانت طبول الحرب تدق بقوة وأصبح وضع البلاد خطرا بعد أن دخل النظام البعثي في مماحكة مع الأمريكان مرة أخرى، بات الجميع يترقب ما سوف يتمخض عنها، وأنا أعلم جيدا أن هناك ويلات قادمة، فالحرب هي الحرب في كل الأحوال، حتى لو كان الهدف هو إسقاط النظام.

لم يمضِ على زواجي شهر حتى اندلعت النيران في أرجاء البلاد، وبدأت الأرض تهتز من فرط الصواريخ والمقذوفات، كنا نختبئ في بيوتنا كالفئران الخائفة وشرر القصف يتلظى فوقنا كالألعاب النارية. كانت لعبة كبيرة وخطرة دخلها النظام وأركانه بعد أن أصر الغرب على أسقاطه بتهم مختلفة. كان مجبرا على خوضها؛ لأنهم أرادوا ذلك، فورقة الرئيس احترقت للأبد ولا مجال للتراجع.

لم تكن هناك مقاومة تذكر عند تخوم بغداد بعد أن زحفت الدبابات والمجنزرات الثقيلة نحوها، حتى أطبقت عليها ككماشة هائلة، ففرّت

القيادات وتسرب الجنود وتملص القادة من ميدان المعركة؛ لأنها معركة خاسرة بكل المقاييس العسكرية. وهكذا سقطت بغداد على أيدي الغزاة الجدد، بعد حرب خاطفة وسريعة.

بعد أن تفكك النظام وأجهزته الأمنية القمعية هبّ الناس الذين كتموا جراحاتهم على مدى سنين طويلة ممن فقدوا أعزتهم وأحبتهم من الذين غابوا بشكل قسري بسبب نشاط سياسي أو ديني، ضمن حملة الاعتقالات المستمرة إبان فترة الثمانينات والتسعينات، هرول الناس نحو مديريات الأمن ودوائر المخابرات والاستخبارات عسى أن يجدوا ذويهم تحت الأرض حيث الزنازين والطوامير.

كنت أنا مع هؤلاء المنجذبين نحو إزاحة ذلك الستار الغامض وتلك الآلة الوحشية التي فتكت بأرواح الناس، آلة القمع والتعذيب التي كانت الأداة الفعالة بيد النظام لتصفية الخصوم وضرب المناوئين والناقمين والمتمردين. كانت صورة السيد شبر في ذاكرتي وأنا أندفع نحو دوائر الموت، عسى أن أجد له أثرا حتى لو كان ملفا يحمل عنوانه، وأنا أشك أنه استدعي للمديرية للتحقيق والتصفية، بسبب نشاطه داخل السجن. بحثت طويلا في ملفات الموقوفين التي كانت بالآلاف، فطالعت عيني حجم الفجيعة التي كتمها النظام الدموي وهو يغيّب شبابا مثل الورد وكان أغلبهم ممن يحملون شهادات علمية عالية، حتى انتهى بهم المطاف إلى الإعدام.

لم أعثر على أي أثر للسيد، لا ملف ولا ورقة ولا حتى اسم، بعد أن انهمكت كثيرا في البحث بركام كبير من الذكريات المؤلمة. تركت المديرية وتوجهت إلى دائرة الاستخبارات التي لا تقل وحشية عن الأمن العامة، كان موقعها على نهر دجلة في مدينة الكاظمية، كانت الحشود البشرية سبقتني إلى هناك وهم كالعادة يبحثون عن ذويهم تحت الأرض، وقد عثر بعضهم على نزلاء كانوا محبوسين في زنزانة تحت الأرض، ويبدو أنهم تُركوا هكذا وكأنهم حيوانات محبوسة في أقفاص.

لم أجد ضالتي أيضا ولم يبقَ لي سوى الذهاب إلى سجن أبي غريب، لأبحث هناك حتى لو في المقابر التي تحيط بالسجن، أريد أن أعرف مصير السيد حتى أطمئن، فالغياب الغامض يثير في نفسي قلقاً هائلاً فأتحول بسببه إلى كائن مضطرب، وهذا ما عجّل بموت أمي عندما فُجعت بفقدان أخيها وابنها، وأصبح مصيرهما مجهولا حتى ماتت من الكمد والحسرة. هذا الإحساس متولد في داخلي وكأنه متجذر، ربما الجميع ينسى بعد فترة سنة أو سنتين، لكن بالنسبة لي فكلما امتد بي الزمن يتضاعف هذا الشعور ويصبح مؤلما جدا، وهذا ما جعلني أهب إلى البحث عن مصير السيد الذي تعلقت به كثيرا.

كانت أبواب السجن مشرعة، وكُسر بعضها أو خُلع من مكانه، لم يكن هناك نزيل أو محبوس؛ لأن أغلبهم تم الإفراج عنه عندما بيّض النظام السجون قبيل بداية الحرب، ولا أعرف هل بقي أحدٌ بعد ذلك أم

لا، هل فروا بعد سقوط النظام، هل قام أهالي المنطقة بفك أسرهم، لا أعلم. كانت جميع الغرف فارغة، تجولت فيها وفي قاعات الطعام والممرات، واستطعت أن أستدل على غرفتنا الخاصة، تجولت فيها مستذكرا زمنا امتد لأكثر من عشر سنوات، استدعيت الذاكرة مرة أخرى وأعدت الشريط وكأني أشاهد فيلما سينمائيا طويلا ومتعبا، أحداث وحوارات ونقاشات وآلام وآهات وصرخات...كنا نعاني من الوحشة والغربة والعذاب ونحن مطمورون في هذا القبر الضيق، لأكثر من عشر سنوات ونحن نأكل أنفسنا أكلا حتى لم يتبقَّ منا سوى بقايا إنسان لا يقوى على مواصلة حياته مرة أخرى حتى لو تنفس الحرية مجددا. لقد حطمونا من الداخل بفؤوس من القسوة والوحشية والظلم.

لم أترك مكانا لم أذهب إليه، حتى الأمكنة السرية التي تُجرى فيها التحقيقات الخاصة، لكني وجدت شيئا هناك، أثار انتباهي ودفعني للتحري أكثر، طاقية سوداء، كانت متسخة جدا ويعلوها الغبار، وجدتها مرمية قرب كرسي قد صدئت أجزاؤه المعدنية، أخذتها ونفضت التراب عنها حتى بانت ملامحها، يا الله، إنها طاقية السيد التي كان يعتمرها حينما كان في الزنزانة، هي نفسها، عرفتها من ذلك الثقب الصغير على أحد جوانبها.

بكيت بحرقة وأنا أجثو على ركبتي معتصرا تلك الطاقية الطاهرة، ضممتها على صدري وكأني أستمد منها القوة وتلك الطاقة الروحانية

التي كان السيد يبثها علينا ليخفف عنا ثقل الحبس ومشقته. أخذتها بين يدي حاملا إياها كشيء مقدس، لقد توضحت الأمور الآن، أخذوا السيد للتحقيق بعد أن استبعدوه عن زنزانتنا، طال التحقيق، عذبوه ربما، فهم متوحشون لا ريب في ذلك، وقد يكون مات تحت أيديهم وهذا وارد جدا، أو زرقوه بحقنة سامة، فهذه هي إحدى أساليبهم القذرة في تصفية من يريدون التخلص منه. بعد ذلك دفنوه في تلك الأرض الجرداء التي تحيط بالسجن.

اكتفيت بالطاقية كدليل على أن السيد قد تم قتله وتصفيته بسبب نشاطه الديني داخل السجن، لكن معرفة مكان دفنه فهذا أمر لا أقوى على التحقق منه؛ لأنه يفوق قدراتي. فأخذتها معي لأحتفظ بها ولتبقى ذكرى من بقايا رجل قلَّ نظيره في عالم الرجال العلماء الشجعان.

* * *

بدأت الحياة تتبدل وتتشكل مرة أخرى وكأنها نزعت ثوبها القديم واستبدلته بجديد، أصبحت الحرية مفرطة جدا بعد أن كانت مقموعة ومتحجرة، تنفسها الناس بعد أن أزيح الصنم الرهيب من نفوسهم، خرجوا كالمجانين وهو يتحركون بفوضوية غير خلاقة، لم يصدقوا أنهم تخلصوا من أعتى طاغية حكم البلاد والعباد. كنت فرحا أنا أيضا فبكيت على ماضيّ الذي ضاع بين الجدران والقضبان. فتقلبت حياتنا شيئا فشيئا ونحن نشهد تطورات سياسية عديدة، ديمقراطية جديدة

طرقت أبوابنا، انتخابات حرة، القيود بدأت تتفكك قيدا بعد قيد، لكن الانهيارات الأمنية قوضت تلك السلسلة من التطورات حتى أصبحت وبالا علينا.

دخلت علينا المفخخات والمتفجرات بعد أن أقحمها غرباء من خارج الحدود بحجة مقاتلة الأمريكان، كان الاستهداف يطال الكل دون تمييز، فاضطرب الوضع وأصبح على فوهة بركان. كانت الفوضى الأمنية وحتى السياسية هي الأخبار الرئيسة التي تتصدر الصحف ووكالات الأنباء يوميا.

تبدل الأحوال هذا طالني أيضا، فقد تركت الفرن واستطعت أن أفتح مشروعا خاصا بي، وهو مطعم صغير لبيع الفلافل؛ لأكون مستقلا أكثر وليتحسن دخلي المادي؛ لأن متطلبات الحياة بدأت تزيد بعد أن دخلت علينا تكنلوجيا التلفاز المرتبط بالستالايت وكذلك الهاتف المحمول، فضلا عن أجهزة كهربائية وإلكترونية كثيرة بتنا نراها في السوق، فضلا عن المواد الغذائية المتنوعة التي حُرمنا منها في السابق. كان هناك انفتاحٌ اقتصاديٌ في السوق، جعل المواطن يتنفس قليلا من نسائم الرخاء والرفاهية، مع تحسن رواتب الموظفين ونشاط القطاع الخاص.

كانت زوجتي في شهورها الأخيرة من الحمل الذي تأخر كثيرا، وأخذت تجمع للطفل القادم مزيدا من الملابس والتحضيرات، كانت

مسرورة متفائلة وكأنها تنتظر هدية من السماء. كان السر الذي كتمته بداخلي طوال سنوات زواجي منها يحاول الخروج كمارد متمرد سئم البقاء في قمقمه الضيق.

سري كان تلك القطعة الزمنية التي قضيتها في سجن أبي غريب، تلك القطعة التي اقتطعتها من حياتي حينما كشفت لها عن ماضيي، خوفا من الرفض والنبذ، كانت خيانة مني وتدليسا أعترف بذلك، لكني كنت كغريق يحاول التشبث بأصغر قشة. فلم أُرد أن أخرّب حياتي بسبب تلك القطعة الزمنية البائسة من حياتي، لكنها أصبحت واقع حال وعليّ تقبلها كما هي.

كنت مترددا في البوح، خشية ردة الفعل، لكني كنت مطمئنا من ناحية طيبة زوجتي وتعلقها بي، وهذا قد يساعد في امتصاص الصدمة... زهرة...

- عيون زهرة... ردّت بود وهي منشغلة بترتيب ملابس الطفل المنتظر.

- هناك سرٌّ أود الإفصاح عنه لك.

- سرٌّ...!! قالت بشيء من الوجل والريبة

- نعم، لقد أخفيته عنك خشية أن ترفضيني حينما تقدمت لك...

تركت ما بيدها وتبدلت سحنة وجهها وأصبحت أكثر تجهما، الشك حام حولها وقد رأيت ذلك في عينيها، أنا أعرف ما قد يغيض النساء

ويثير غضبهن، ولهذا شعرت بغضبها والشكوك تملأ قلبها، لقد ظنت هي لوهلة أنني مرتبط سابقا، أو متزوج حديثا، أو على ذمتي امرأة أخرى، المهم هناك امرأة في حياتي، وهذا في حساباتهن من أقوى طعنات الخيانة الزوجية، حتى لو كان في الحلال. لكني كسرت حاجز الشك ودفعتها إلى منطقة أخرى هي أقل وطأة من سرِّ امرأة أخرى، وقلت:

- أنا كنت مسجونا في سجن أبي غريب....
- ماذا...!
- نعم، هذه هي الحقيقة...
- وماذا فعلت حتى تُسجن؟
- بسبب اشتراكي في الانتفاضة التي حدثت في عام ٩١...
- تقصد الانتفاضة الشعبانية!
- نعم...
- وما العار في ذلك، بل على العكس هذا شيء مشرف.
- لقد خشيت من الرفض، من يقبل برجل خرج للتو من سجن، وبتهمة تُعد آنذاك من الكبائر لدى النظام.
- لكن قلي، لماذا الآن تحديدا بُحت لي بسرِّك هذا؟
- لا أدري صدقيني، لكنه شعور داخلي ألحَّ عليّ بالبوح... فأنت شريكتي في الحياة ولا بد لي من كشف مزيدٍ من أوراق حياتي.
- وهل هناك أوراق أخرى!! ردّت بخبث

- لا أبدا، موضوع السجن هو الأمر الوحيد الذي أخفيته عنك، لكن أشعر براحة الآن بعد أن كفّرت عن ذنبي وأزحت عن صدري ذلك الثقل.

كنت شغوفا بمتابعة الأخبار وما يجري على الساحة العراقية من أحداث، أتنقل من قناة إلى أخرى وكأني أبحث عن شيء ما، لم أستقر على خبر ولا فضائية، بل مجرد تنقل من هذه إلى تلك حتى لمحت صورة شخص أعرفه ظهر في إحدى القنوات. كانت صورته ثابتة لكن صوته بدا واضحا، ويبدو أنه يتكلم بالمحمول أو ما شابه. رميت أداة التحكم واقتربت بحذر من الشاشة، أنه هو...خالي كريم.

يا الله... ما زال حيا، لكن أين هو الآن؟ دققت في تفاصيل الشاشة مرة أخرى، فظهر أن المتكلم يتحدث من واشنطن. وفي أسفل الصورة اسمه وتخصصه. الدكتور كريم قاسم...متخصص بالشأن العراقي. تغيرت هيئته كثيرا فقد ظهر ملتحيا وشعر رأسه بدا طويلا وأشيبا، لكن صوته لم يتغير، تلك النبرة المحبوبة المتدفقة، كنت فرحا مسرورا متفاخرا ومطمئنا. لكن كيف وصل إلى أمريكا، بعد أن كان جنديا في الجيش العراقي، هل من المعقول تم أسره من قبل قوات التحالف وأخذوه إلى هناك. ولماذا لا يرجع بعد أن سقط النظام. فكرت كثيرا في كيفية التواصل معه لكن بدا لي الأمر شبه مستحيل.

* * *

ضرب الطلق زوجتي فصرخت صرخة مدوية ارتجت لها أركان البيت، قفزت كالمذعور وأنا مرتبك ولا أعرف ماذا أفعل. ناديت على عمتي وأخبرتها بالأمر، هرعت بسرعة وهي تحوقل وتبسمل، اختلت بها وتبادلتا بضع كلمات، ثم هرعت إلى الخارج بعد أن ارتدت عباءتها وقالت: إنها ذاهبة إلى القابلة.

استغرق وقت المشوار طويلا وزوجتي تتصارع مع الألم، وهي تطلق صيحات هائلة، وقف إخوتها الصغار بباب الغرفة وهم يراقبون أختهم المتألمة، كانوا وجلين خائفين، يأكلهم القلق وهم ينظرون نحوي، أخذتهم إلى غرفتهم لينام بعد أن أخبرتهم بأن زهرة ستلد مولودا جديداً.

جاءت القابلة أخيرا متلفعة بعباءة ولم يظهر منها شيءٌ سوى وجهها، وكانت تحمل تحت عباءتها حقيبة، سلمت عليّ باقتضاب ودخلت إلى الغرفة مع عمتي وأغلقن الباب. خرجت أنا إلى الشارع أدخن السجائر داعيا الله أن يمضي الأمر على خير دون مضاعفات أو مشاكل، منصتا إلى هدوء الليل الذي لم يمزقه سوى نباح الكلاب البعيدة وهدير المحركات الصادر من مركبات كانت تمرق بسرعة على الشارع العام بين حين وآخر.

طال الوقت وزحف القلق نحوي كالمرض، فلا أستطيع أن أدخل وأقتحم الغرفة لأرى ما يحصل، ولا أقدر أن أبقى هكذا والقلق بدأ

يأكلني بقوة. لكن الله لطف بي وزفَّ لي بشارة الخير، حيث رأيت القابلة تخرج في طريقها للمغادرة وهي تهنأني بسلامة زهرة، فقد وضعت بنتا مثل القمر. الحمد لله، حمدت الله كثيرا وصليت ركعتين شكرا لله.

أخذت المولودة الجديدة، شممتها ووضعتها على صدري، كبّرت في إذنها ولقنتها الشهادة، كانت زهرة منهكة جدا وغارقة في العرق، لكنها لم تخف ابتسامتها وهي تحتضن ابنتها لتضعها على صدرها. ماذا سنسميها..؟ سألت زهرة بصوت واهن... فقلت دون تردد...: نسميها زينب.

الفصل الرابع

يا زينب... دوى صوت قوي في أرجاء منطقة مكيشيفة التابعة إلى قضاء سامراء في محافظة صلاح الدين، كانت إصابة جارحة ومؤلمة تكبدها خضر عبد الواحد المقاتل في الحشد الشعبي، وهو ما زال متواريا خلف العمود الإسمنتي لأحد الدور المهجورة، حيث باغتته رصاصة قناص داعشي كان متربصا به لساعات طويلة.

شظايا الإسمنت المتطاير أحدثت بوجهه جروحا بالغة وانطفأت عينه اليمنى كليا، وتحوّل وجهه إلى قطعة متجمدة من الدماء أفقدته الرؤية بشكل كبير، زاد وضعه حرجا وبات قاب قوسين من الرصاصة التالية التي ستكون مميتة هذه المرة. فانتصب مرة أخرى مسندا ظهره بقوة على العمود، وهو يلعق جراحه النازفة محتضنا سلاحه بعد أن ألقمه إطلاقة استعدادا لأي طارئ أو هجوم مباغت يشنه العدو.

صفير الرياح يدوي في تلك المنطقة الجرداء وهي تضرب أخاديد التلال والمرتفعات الترابية، غبار متصاعد من الأرض الترابية ممتزجٌ بالأدخنة المنبعثة من الآليات المعطوبة، وضحكات خبيثة يطلقها ذلك الداعشي وهو يحتضن قناصه على مسافة أكثر من خمسمائة متر عن هيكل ذلك البيت.

حاول ذلك الداعشي مرارا أن يتصل بجهاز المناداة لطلب الإسناد من جماعته المنسحبين، لكن عطبا ما أصاب الجهاز وتعذر الاتصال ولم يكن هناك صوتٌ غير وشوشة غير مفهومة، فرماه جانبا وهو يلعن ويشتم قياداته. وقد حسبها كمعركة الند للند وحوّلها إلى نزال شخصي مع رافضي يجب قتله، وكثأر لإخوته الذين قتلوا في المعركة الأخيرة، كان غضبه يتصاعد كلما لاحظ منظر الجثث المترامية هنا وهناك، فيقوم بإطلاق رصاصة على العمود مزمجرا كالضبع، وهو يضغط على أسنانه الصفراء.

لم يكن حال خضر جيدا، بل وصل إلى مرحلة من أسوأ ما يتعرض له الجندي في أرض المعركة، إصابة بالغة وصعوبة بالرؤية واستحالة التموضع، مع جفاف الجسد وانعدام الماء وسيطرة العدو على موضعه. هذه المؤشرات ستفضي بالنتيجة إلى الموت المحتم؛ لأن الوضع لا يمكن أن يستمر على هذا الحال.

ردد الجندي خضر اسم زينب أكثر من مرة، تأسيا بالسيدة زينب التي كابدت مشقة مأساتها بعد انجلاء المعركة وفقدانها جميع من كان حولها، فأصبحت وحيدة في مواجهة جيش العدو الذي أحاط بها وبمن حولها حتى أصبحت أسيرة لتبدأ مأساة السبي واقتيادها مكبلة إلى الشام. مستحضرا كذلك ابنته زينب ذات الأحد عشر ربيعا، والتي كان قلبه متعلقا بها إلى حد الجنون، كأنه يستدعيها ليحتضنها ويشمها في لقاء بدا له الأخير.

كثيرا ما كان يحتضن ابنته ويشمها من جيدها ويقبل يديها قبل كل التحاق، لبى فتوة المرجعية الدينية بواجب الجهاد ضد القطعات الداعشية السوداء التي بدأت تقضم الأراضي الشمالية الغربية كالجراد، حتى وصلت إلى تخوم سامراء وديالى والأنبار.

* * *

امتلك مطعما صغيرا لبيع الفلافل، ليسد به احتياجات عائلته الصغيرة فضلا عن عائلة زوجته التي يسكن معهم في نفس البيت، وكثيرا ما كان يختلي مع نفسه عندما يهبط الليل وبعدما ينقطع الزبائن عن مطعمه، فيصرف عامله ويبقى هو ينظف أدوات الطبخ والقلي ويهيئ عجينة الفلافل لليوم التالي، ثم يجلس ليعد وارده اليومي فيحمد الله ويشكره على رزقه. خلواته هذه كانت تريحه نفسيا، بعيدا عن صخب الحياة ومتطلبات البيت، مستذكرا حياته الماضية، فهو منجذب بشكل لا شعوري إلى الماضي، مستحضرا صور أفراد أهله الذين تفرقوا ما بين حي وميت، مصائر مجهولة ألّمت بأخويه وأخواته الثلاث، خرج من السجن وهو لا يعرف عن مصيرهم شيئا، تاه في حياته مثل سفينة تعطلت وسط المحيط، تتقاذفها الأمواج يمينا وشمالا، فاندفع بشكل لا شعوري نحو السبيل الذي تعرّف من خلاله على زوجته الحالية. وكأنها رزق دفعه الله إليه ليعوضه الخسارات التي مُني بها، فاستقر ببيت ومصدر عيش لا بأس به. لكن حنينه إلى ماضيه ما زال يراوده وذكريات

الماضي تداعب مخيلته، وشخصية السيد شبر تدور بين جنبيه، فهو البوصلة التي كان يستدل بها على الطريق، طريق حياته المتخبطة. آه لو كان موجودا الآن...فما أحوجني إليك حاليا، فما زلت تائها في حياتي رغم استقراري النسبي، فأنا بحاجة إلى نصيحة أو إرشاد يبعث الطمأنينة إلى قلبي.

في فترة السجن كان السيد شبر رفيقه في نفس الزنزانة، نهل منه علم الفقه والعقائد والأخلاق، جلسات أو حلقات درس كان السيد يجريها على النزلاء في تلك الزنزانة، تلك المحاضرات بدأت تزيح في عقلية خضر ما ترسب بذهنه، ما تراكم في عقله من معلومات في سنواته السابقة، فأقام على أنقاض ما تعلمه من فلسفة خاله وما درسه في الجامعة كماً معرفيا أطمأنت له نفسه وهدأ باله، بعد أن كان يخوض صراعا نفسيا وعقليا مع ما يعتقد وما يحاول الاعتقاد به. فاكتشف في نفسه بأنه أرض خصبة للتدين وسلك الطريق الذي يوصله إلى الله، فمنبته وربما الموروث الجيني الذي يحمله هيّأه ليصبح منجذبا إلى التدين، بعد أن تقهقر عنده الجانب العلماني الذي أخذه من خاله. حالة الاطمئنان هذه بات يبحث عنها من جديد بعد أن عقد العزم في البحث عمن يشبه السيد شبر. فراح يتردد على المساجد والحسينيات ويلتحق بصلوات الجماعة ويحضر خطب الجمعة ويستمع إلى الخطباء بإصغاء وتركيز وكأنه يعيد إلى ذاكرته صورة السيد وهو يعظ ويرشد ويوجه.

انجذب إلى رجل دين وقور على قدر عال من العلم والأخلاق، كان يتردد إلى ذلك المسجد كل جمعة ليلقي خطبته ويصلي بالناس ثم يجلس إليهم مستمعا ومجيبا عن اسئلتهم. عرف خضر أن الرجل يسكن النجف، فهو طالب علم في حوزتها، لكنه كان متمكنا جدا وبارعا في الخطابة، انجذب قلبه إليه وواظب على حضور خطبه ومحاضراته بشكل جدي. فلمس فيه الشبه الكبير بينه وبين السيد شبر، شبه العلم والأخلاق والبراعة في الكلام.

بدأ يشعر بالاطمئنان وهو يتسلل إلى قلبه، وكأنه يريد أن يعيش الفترة التي قضاها برفقة السيد شبر في السجن، تلك الفترة التي وصفها بالروحانية رغم مأساتها وقساوتها، لكن وجود السيد خفف من ثقلها وقتامتها.

لاحظت زوجته زهرة التغيرات النفسية التي طرأت عليه، هدوء نفسي، اطمئنان قلبي، مزاج مستريح بعد أن كان متوترا وقلقا. وقد أطال لحيته وشذبها وبدأ يتعطر بالمسك والعنبر، لكنه لم يكن متزمتا ولا متشددا، ولم يفرض على زوجته ارتداء النقاب أو ما شابه ذلك، وكان هذا مبعث اطمئنان للزوجة بعد أن خشيت على زوجها من أن ينزلق في لجة التيارات الدينية المتشددة التي نشطت وبرزت على الساحة العراقية بعد سقوط النظام، فقالت له ذات مرة:

- أخشى عليك زوجي الحبيب...

- مم تخشين عليّ؟

- أنت تعلم ما يجري حولنا، أحزاب وجماعات دينية متعصبة بدأت تظهر وبدأت تمارس سطوتها على الناس بالإرهاب وقوة السلاح...

- وما علاقتي أنا بذلك؟ سأل مستغربا

- من يراك على هيئتك هذه يحسبك منهم...

فضحك طويلا وربت على كتفها وقال:

- أنا لست متشددا ولا إرهابيا، ولا أفرض شيئا على أي أحد، أنا رجل مسلم ومسالم ولم أكن منتميا لا من قبل ولا من بعد لأي جماعة أو حزب، أنا أتبع رجل دين واحد، معتدل ومستقيم ولا يؤمن بالتطرف...

- أتمنى أن تبقى على اعتدالك ولا تنجرف إلى هؤلاء، لقد سمعت قصصا مخيفة بما يفعلونه تجاه البنات السافرات والشباب المتحللين، لكن لا أدري... يقولون: إنهم يقيمون شرع الله بتغيير المنكر إذا كان ظاهرا ويؤثر على المجتمع، طالما هو مخالف لتعاليم الدين الإسلامي...

- ديننا دين سماحة وليس تشددٍّ، ولا يفرض على أحد بالقوة أن ينفذ تعاليم الدين، والفرد هو وربه، يحاسبه أو يعفو عنه، لأن تلك الأفعال تنفر الناس من الدين وربما يلحدون في نهاية المطاف... ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾... وليس بالإكراه والجبر.

- الحمد لله، لقد طمأنتني لقد كنت متخوفة قليلا من التغييرات التي حصلت عليك مؤخرا...

- تغييرات خير إن شاء الله، كوني مطمئنة.

انقطع الشيخ عن حضور صلاة الجمعة وخطبتها عن المسجد الذي كان يصلي فيه خضر، اضطرب كثيرا وسأل أكثر من شخص عن ذلك، فسمع أن هناك شيخا آخر سيقوم بهذا الواجب بدلا من ذاك الشيخ. لم يرتح خضر لهذا الأمر وشعر بفقدان آخر يشبه ما شعر به حينما كان في السجن بعدما أبعدوا السيد شبراً عن زنزانته. فعقد العزم بالسفر إلى النجف في يوم الجمعة ليحضر مجالس ذلك الشيخ وخطبه هناك بعد أن سمع من أحدهم بأنه أصبح إمام حسينية في النجف وخطيباً فيها.

فسافر خضر إلى النجف وهو ممتلئ شوقا ورغبة للقاء الشيخ والتزود من خطبه ومحاضراته ليحافظ على مستوى الاطمئنان القلبي والنفسي عنده بعد أن رأى نفسه في موضوع لا يمكن الرجوع عنه. فاللذة الروحية التي وصل إليها جعلته بمكان لا يمكن التفريط بها مهما كلفه ذلك. فدخل في عالم الروحانية الحقيقي عند حضرة الإمام علي عليه السلام، وراح يقلب ناظريه في القباب الذهبية وعند الشباك المذّهب، وأصوات الزائرين وهم يطوفون حول الضريح كالحجيج، طاقة روحانية عجيبة تملكته وكأنه يزوره للمرة الأولى، وكأن زياراته الأولى عندما كان صغيرا ليست لها وجود، أما الآن فالوضع مختلف تماما.

التقى هناك برجال دين كُثر طلبة وأساتذة، كان منبهرا بهم وبأخلاقهم وسماحتهم، يسلم عليهم باحترام عالٍ ويقبل أيدي الكبار

منهم، احتراما للعمامة التي يرتديها، وهي عمامة رسول الله كما يُعبر عنها في تلك الأوساط. واظب على حضور محاضرات الشيخ وخطبه كل جمعة. فكان يهيئ نفسه منذ الفجر بعد أن يصلي، فيغتسل غسل الزيارة ويتعطر ويرتدي أفضل ما عنده ويسافر قاطعا تلك المسافة الطويلة مسبحا ومستغفرا. لقد تعلق قلبه بزيارة النجف إلى حد الوله، وكأنه يستلهم منها روحانية مضاعفة، فكان يقضي جل وقته عند حرم الإمام مصليا ومسبحا، متأملا هذا المزار العظيم الذي تهوي إليه الأفئدة من كل حدب وصوب، مستمدا منه الطاقة الروحية التي تساعده في التخلص من كل سلبيات ومنغصات الحياة. ثم يزور المقبرة الكبيرة ويقف على شواخص القبور ويقرأ القرآن بصوت خاشع، وفي قرارة نفسه أن من بين تلك القبور قبري والدته ووالده، وأخيه الذي قضى نحبه في حرب الثمانينات، فكان يهدي لهم ثواب الفاتحة وما يقرأ من القرآن.

* * *

كانت أوضاع العراق الأمنية غير مستقرة، فبُعيد سقوط النظام أصبحت حدوده مفتوحة ومستباحة، الأمر الذي شجع على دخول جماعات مسلحة متطرفة تدخل بحجة مقاومة المحتل، لكن المقاومة تحولت إلى استهداف واضح ومباشر لمكونات المجتمع من خلال السيارات المفخخة والعبوات التي كانت تزرع على أطراف الشوارع

والأزقة، فدخل العراق في دوامة من الصراعات الطائفية والمناطقية بسبب تلك الأعمال الإجرامية، فانزلق المجتمع إلى مستنقع الحرب الأهلية، ومُنيت جميع الأطراف بخسائر كبيرة وتهّجرت كثير من العوائل من مناطقها بعملية أشبه بالنزوح الجماعي. حاولت الدولة السيطرة على هذا الوضع المنفلت لكن دون جدوى، فالأمور خرجت عن السيطرة وتحولت كثير من مناطق بغداد فضلا عن بعض المحافظات إلى أمكنة موبوءة بالإرهابيين الذي فرضوا سيطرتهم على تلك المناطق بقوة السلاح فقتلوا وهجّروا أهاليها وتحت شعارات خاوية لها دلالات دينية متطرفة.

الوضع الأمني الهش الذي اجتاح معظم مناطق العراق بالرغم من وجود قوات عسكرية عراقية فضلا عن قوات التحالف الموجودة، شجع على دخول عناصر غريبة من خارج الحدود، أخذت تسيطر على المناطق الشمالية الغربية بسرعة مثل النار في الهشيم. عصابات شرسة من جنسيات مختلفة مزودة بالأسلحة الخفيفة والثقيلة استطاعت أن تكسر الحواجز وتبثُّ الذعر في أهالي تلك المناطق، فحصلت انهيارات في صفوف القوات العسكرية حتى أُجبرت على التراجع والانسحاب. كان الوضع متأزما جدا وبعث رسالة خطرة إلى الحكومة التي وقفت عاجزة أمام هذا المد الإرهابي الجديد. لم يعرف أحد سبب الانهيار السريع الذي حصل، وكأنه كان مدبرا ومخططا له بعناية، فالثقة التي كان يتمتع بها

هؤلاء وقوة الاندفاع نحو العمق العراقي خلق علامات استفهام كبيرة لدى الجميع.

التحركات المضادة ضد هذه العصابات الإرهابية من قبل الحكومة لم تكن بمستوى الحدث، والتحشيد العسكري تأخر كثيرا حتى زحفت هذه الجموع نحو الجنوب وفي نيتها السيطرة على بغداد وإعلانها إمارة تابعة لدولتهم المزعومة.

داعش... التسمية التي أُطلقت على تلك المجاميع الإرهابية، أو ما يسمون أنفسهم تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام، جاؤوا من خلف الحدود السورية بعد أن شكلوا تنظيمهم هناك وأعلنوا أنفسهم دولة، والحقيقة هي أن لهم جذورا تمتد إلى الجماعات الإرهابية الأسبق منها، كجماعة الجهاد الإسلامي والتوحيد والجهاد وغيرها من الجماعات التي دخلت على الساحة العراقية بعد سقوط النظام ونفذت عمليات إرهابية في كثير من مناطق العراق. يحمل هذا التنظيم فكر الجماعات السلفية وعقيدتهم الجهادية، وهو من الخطورة بمكان أنهم كانوا يكفرون الجميع فحصلت إعدامات كثيرة في صفوف المدنيين الذي رفضوا وجودهم وتواجدهم، فضلا عن حالات السبي التي طالت مكونات غير مسلمة كالطائفة المسيحية والإيزيدية، فأوغلوا فيهم القتل والتشريد واستباحوا حرماتهم وهتكوا أعراضهم.

كانت أشرس هجمة يتعرض لها العراق منذ هولاكو، فكانوا مغول

العصر الحالي، فعبثوا وقتلوا وحرقوا وشرّدوا قرى ومدناً كاملة، حتى وصلوا إلى المناطق الأكثر قربا من جنوب بغداد. أصابت تلك الصدمة الجميع، بما فيهم القوات الأمنية والعسكرية، فضلا عن القيادات السياسية، وكان على أحدهم أن يتحرك لإنقاذ العراق من تلك الفتنة وهذه الاستباحة الخطرة.

كان خضر يحضر صلاة الجمعة في إحدى حسينيات النجف، وهو ليس ببعيد عما يحدث؛ لأن حاله حال بقية أفراد المجتمع منجذب إلى الأخبار السياسية والأمنية بشغف نظرا لخطورة الوضع الذي كان يجتاح الساحة العراقية بين حين وآخر. فجاء الإعلان المدوي من قبل المرجعية الدينية في النجف وهو يحمل فتوى الجهاد ضد هؤلاء الإرهابيين وصدهم وطردهم من أرض العراق، لما يشكلونه من خطر حقيقي على المجتمع وعلى السلم الأهلي.

التفّ الناس حول الشيخ الذي أنهى خطبته بعد أن وصل الخبر إلى أسماع الجميع، صيحات وتكبيرات وصلوات عمّت أرجاء الحسينية، ووقف الشيخ وسط جموع المصلين وراح يخطب بهم بصوت عالٍ بأن الجهاد قد حان، بعد أن أصدرته المرجعية على لسان الشيخ الكربلائي في الصحن الحسيني، كان خضر غارقا في ذهوله ودهشته وهو يرى تلك الجموع تهلل وتكبر بعد إصدار تلك الفتوى التي تردد صداها كدوي المدافع في جميع أنحاء العراق. اقترب من الشيخ المتحمس وسأل: ماذا

سنفعل يا شيخنا؟ فردّ الشيخ بصوت عالٍ وهو يرفع رأسه مخاطبا الناس..: نجاهد في سبيل الله ضد هؤلاء الدواعش الأنجاس... ثم أكمل... من يجد في نفسه الكفاءة واللياقة فليلتحق بصفوف المقاتلين لنكون سندا للقوات الأمنية والعسكرية ونطرد هؤلاء عن أرضنا... كان الخطاب مزلزلا وألهب حماسة الشباب والرجال وصدحت حناجرهم بالصلوات والتكبيرات.

رجع خضر إلى بغداد وما زالت خطبة الشيخ ترن في إذنه وتهز مشاعره وكيانه، متخيلا نفسه مرتديا حلته العسكرية قابضا على سلاحه وهو يقاتل تلك الوحوش البشرية التي لا ترعوي في سفك الدماء واغتصاب النساء، سرح بخيالاته بعيدا عن أرض الواقع وهو يصور في ذهنه مشاهد البطولة التي سيشهدها، وكيف سينال رضا الله والدين والمجتمع، وهذا أقصى ما يصل إليه المؤمن. تهيّأ نفسيا وذهنيا ليخوض تلك التجربة الفريدة، المجاهدة في سبيل الله والوطن، مستذكرا حوارا دار بينه وبين ذلك الشيخ في إحدى الجلسات...ما أقصى غاية البذل؟ وكان ردّ الشيخ...: هو بذل النفس في سبيل الله. وقصد به الشهادة من أجل إعلاء كلمة الله والإسلام والذود عنه وعن الوطن. فهذا أقصى ما يصل إليه المسلم المؤمن من تضحية، وسيكون مثواه الجنة مع الصديقين والشهداء.

لكنه استعرض صورة زوجته وابنته في ذهنه، كيف سيفارقهم

وإلى من سيتركهم، وإذا ما أصابه مكروه من الذي سيعتني بهم!! أفكار كثيرة وهواجس تفجّرت بذهنه كبالونات مزعجة، جعلته يتكدر ويحزن، لكن واجبي الشرعي يدعوني للالتحاق بصفوف المقاتلين، ولا مجال للعواطف هنا، البلد على وشك الانهيار والنداء بالجهاد قد ضرب مسامع الناس، وأي تقهقر أو تقاعس فإننا غدا سنكون تحت رحمة هؤلاء المتوحشين، سيقتلوننا لا محالة ويغتصبون نساءنا ويذبحون أطفالنا، هؤلاء برابرة لا رحمة عندهم ولا شفقة، ولا سبيل لردعهم إلا بالدم.

* * *

التحق خضر بالأفواج الأولى التي تشكلت بعد أن ودع زوجته وابنته وعائلة زوجته كذلك وسط بكائهن وعويلهن، وأوصى عامله بأن يهتم بمطعمه وأن يأخذ الوارد يوميا إلى بيته، فأمّن بذلك حياة عائلته ليذهب مطمئنا إلى ساحة القتال، دمعت عيناه وهو يسحب يده من يد ابنته التي تشبثت به باكية بأن لا يذهب، لكنه نداء الواجب الذي يجب أن يمتثل له دفاعا عن وطنه وشرف أبنائِهِ.

خضع إلى تدريب قاس ومكثف على مدى أسبوعين، تعلم خلالها التعامل مع الأسلحة الخفيفة والمتوسطة، فضلا عن الضبط والربط العسكري، وأساسيات الجيش المتعارف عليها حتى شعر أنه مستعد للقتال بقوة وعزم كبيرين.

كانت أولى وحداته العسكرية في سامراء كجزء من الخلفيات أو كوحدة إسناد واحتياط، حتى تشّبع بأجواء الميدان العسكري وتأقلم مع الأوضاع الصعبة التي قد يواجهها الجنود أثناء المعارك الشرسة، خلال تلك الفترة التي استمرت بضعة أشهر كان يُمنح إذنا بالإجازة الدورية ثلاثة أيام كل أسبوعين، يقضيها غالبا بين عائلته أو في مطعمه.

في التحاقه الأخير إلى المعسكر تشبثت به ابنته على غير العادة، وراحت تصرخ بأن يبقى ولا يذهب، وأحست بأنها سوف لن تراه مرة أخرى، فطمأنها بأنه سوف يرجع سالما وما عليها سوى أن تدعو له بذلك. انقبض قلبه وهو يغادر مدينته وشعر بأن البنت أبصرت شيئا يلوح في الأفق، وقلب الأطفال لا يخطئ.

تحرك فوجه باتجاه المتقدم من أجل تحرير منطقة كان الدواعش يسيطرون عليها، برفقة القوات الأمنية الأخرى، أرض ترابية مترامية الأطراف ماعدا بيوت وهياكل توزعت هنا وهناك استمكنها العدو وحوّلها إلى مقرات له. كانت آلياته تُرى من بعيد وحركة أفراده واضحة، وتم رصدهم بالمراصد فاتضح أن أعدادهم كبيرة ولديهم أسلحة ثقيلة ومتوسطة فضلا عن مركبات كثيرة. كان التوجه الأول هو قصفهم بالهاونات من أجل تشتيتهم وتفرقتهم ليسهل السيطرة على حركتهم، بعدها يتم الهجوم المباغت وطردهم من المنطقة.

جرت الخطة كما تم التخطيط لها ونُفذ الهجوم، كانت المقاومة

شرسة جدا فراح ضحية ذلك شهداء كُثر من الجانب العراقي، لكن تقدم قوات الحشد مع القوات الأمنية مشفوعة بدرع ثقيل مكون من دبابات ومدرعات استطاع أن يزيح جزءا كبيراً من تلك العناصر الداعشية، حتى تمكنوا من احتلال الجزء الأول من المنطقة وتم قتل العديد من تلك العناصر وأسر البقية. كان خضر مندفعا بشكل كبير وهو يحمل بندقيته الثقيلة، متسلحا بمخازن العتاد التي زينت صدره مع تكبيرات كان يصدرها بين حين وآخر.

كان هناك هيكل دار بعيد عن خط المتقدم للقوات العراقية، وقد أمر قائد السرية ثلاثة من الجنود بتفقد تلك الدار والتأكد من خلوها من أي عنصر داعشي، كان خضر ضمن الجنود الثلاثة الذين تطوعوا لإنجاز المهمة، فتوجهوا بحذر نحو الهيكل والذي يبعد حوالي خمسمائة متر تقريبا عن الموضع المتقدم.

بعد قرابة نصف ساعة سمع أفراد سرية المتقدم دوي انفجار مكتوم مع إطلاقات نار متعددة قادمة من جهة الهيكل البعيد، هبّ الجميع لرصد ما يحدث هناك، كانت الرياح تضرب الأرض الرملية ليرتفع على إثرها الغبار الأمر الذي لم يسمح لهم بالرؤية الواضحة، فأمر ثلاثة آخرين بالتحرك صوب البيت المهجور وفك الاشتباك وتقديم المساندة للجنود إذا كانت هناك عناصر داعشية، تقدم الجنود الثلاثة بحذر حتى توقفوا عند نصف المسافة عندما أمطرهم قناص

برصاصاته فجرح أحدهم برصاصة في فخذه، تم إخلاء الجريح ورجع الجنود إلى موقعهم. حلل الضابط الموقف وقال لأفراد طاقمه... هناك قناص داعشي يتربص خلف تلة بعيدة عن موضعنا، ويبدو أن له يد فيما حصل لجنودنا هناك، ولا يمكننا التحرك باتجاه هيكل البناء لأنه سيرصدنا، فالأرض مكشوفة أمامه وبالتالي هي تحت سيطرته، وأي تحرك من جانبنا سيوقفه بقناصه... ما العمل؟ تساءل البعض بقلق وهم يتطلعون إلى العراء الشاسع... ننتظر قليلا ونرى... قال الضابط كلمته وعينه باتجاه الدار البعيدة.

لكنهم كانوا يسمعون صوت انطلاق رصاصة بين حين وآخر، ولا يعلمون ما الذي يجري هناك، ولا يعلمون مصير الجنود الثلاثة أيضا. خيّم القلق على الجميع وأخذ الضابط يجري اتصالاته مع القيادات، فجاءت برقية مستعجلة بأن هناك هجوما متوقعا من قبل الدواعش في الساعات القادمة، ليعيدوا ما تم تحريره من قبل القوات العراقية ومن ضمنها تلك المساحة المتقدمة والتي تضم ذلك الهيكل.

علينا تحرير جنودنا من تلك القبضة، وكذلك السيطرة على تلك المساحة المتقدمة لنمنع سقوطها بيد هؤلاء الجبناء... تكلم الضابط بانفعال وبدأ عامل الوقت يضغط بشدة على أعصاب أفراد السرية.

إذن علينا الالتفاف... تكلم أحد ضباط السرية وهو يؤشر بأصبعه على الأرض الترابية، كانت خطته بأن تلتف مجموعة من الجنود خلف

القناص من الجهة الغربية ليباغتوه من الخلف، كانت الخطة فيها مغامرة ومخاطرة؛ لأن الجهة الغربية كانت غير مؤمنة ومن المحتمل أن يتواجد بها عناصر داعش، لكن ما باليد حيلة، وعليهم المجازفة ولا يمكن لهم الانتظار أكثر من ذلك، فالوقت بدأ يضغط والبرقيات تتوالى باحتلال الجزء المتقدم ومسكه لئلا يسقط بيد العدو. فتم اختيار خمسة من الجنود للقيام بالمهمة، وتزودوا بالذخيرة والسلاح لمواجهة أي خطر محتمل.

خمّن الضابط آمر السرية بأن الالتفاف سيستغرق ثلاثين إلى خمس وأربعين دقيقة بالظروف الطبيعية، وضع ذلك في حسبان الرجال الذين سينفذون المهمة، وأعطاهم وصايا وتعليمات إذا ما واجتهم قوة غير محسوبة الجانب.

* * *

لم يمض وقتاً طويلاً حتى سُمع صوت بعيد لرشقات رصاص متعددة، ثم ساد الصمت من جديد... كان الجنود الذين قاموا بمهمة الالتفاف قد حالفهم الحظ في سلكهم طريقا آمنا بعيدا عن بؤر الدواعش، واستطاعوا أن يقتلوا القناص الداعشي الذي باغتوه من الخلف ورشقوه بالرصاص بعد أن كان متربصا خلف تلة عالية وبجانبه صندوق صغير من العتاد والذخيرة، مع قناني ماء ومعلبات طعام فارغة، وعلى مقربة منه كانت هناك ثلاث جثث داعشية قد لقيت حتفها في المعركة الأخيرة.

نزل الجنود بسرعة من تلك التلة متوجهين نحو هيكل الدار، لكنهم وجدوا جثث جنديين عراقيين أصيبوا بشظايا قاتلة، مصفوفين سوية، أما الجندي الثالث فكان خضر وهو متكئ على العمود مغطى بدم تجلّط على وجهه حتى ضيّع ملامحه، وأغلب جسده كان مغطى بالتراب والدماء. كان جامدا مثل تمثال وسلاحه بيده وكأنه أصبح قطعة واحدة مع العمود. حركه أحد الجنود فوقع كخشبة يابسة على جانبه، لقد استشهد خضر بعد أن تحمل ذلك الوقت الطويل من المقاومة وسط الحر والجفاف والعطش ونزيف الدماء، لكنه لم يمّكن نفسه من ذلك الداعشي بعد أن شعر بأنها معركة وجود، فصمد ضاغطا على جراحاته متحملا سطوة العطش والحر حتى يعطي وقتا لرفاقه بقتل ذلك الداعشي؛ لأن الأخير لو تمكن منه لانسحب منتصرا بعد أن يردي عدوه قتيلا. لكن خضر بشجاعته وقوة تحمله استطاع أن يخدعه ويماطل بالوقت حتى تمكن رفقاؤه من قتله.

تفرق الجنود في البيت المهجور للتفتيش فوجدوا داعشيا مقتولا، وهناك آثار سحل لجثث من الطابق العلوي إلى الأسفل، فعرفوا أن خضرا قد قام بسحب جثتي رفيقيه من داخل البيت ليتمكن من إخلائهم إلى الموقع، لكن الداعشي القناص لم يعطه فرصة ذلك وأراد الانتقام لصديقه الذي تم قتله داخل الهيكل.

تم إخلاء جثث الجنود الثلاثة إلى الموقع المتقدم، وقد لاحظ أحدهم

وهو ينظر إلى جثة خضر المخضبة بالدماء، ابتسامة كانت مرسومة على وجهه رغم الدماء المتجلطة على وجهه، وآثار الشظايا التي شوهت الجانب الأيمن منه، وهو ما زال قابضا على سلاحه بقوة وكأنه قد عاهد نفسه بأنه سيبقى يقاتل حتى بعد مماته.

نتاجات المؤسسة

١ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج١.

٢ ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج٢.

٣ ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج٥.

٤ ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج٦.

٥ ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج٧.

٦ ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج٨.

٧ ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج٩.

٨ ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج١٠.

٩ ـ موسوعة المواعظ الحسنة، ج١.

١٠ ـ موسوعة المواعظ الحسنة، ج٢.

١١ ـ موسوعة المواعظ الحسنة، ج٣.

١٢ ـ موسوعة المواعظ الحسنة، ج٤.

١٣ ـ موسوعة المواعظ الحسنة، ج٧.

١٤ ـ حسن الخلق، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

١٥ ـ الصدق سر السعادة، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

١٦ ـ الكذب مفتاح الخبائث، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

١٧ ـ الشكر حصن النعم، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

١٨ ـ الإنابة إلى الله، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

١٩ ـ العلاقات غير المشروعة، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

٢٠ ـ حقوق الوالدين بين الحفظ والتضييع، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

٢١ ـ الحياة الدنيا محطة في مسيرة الإنسان، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

٢٢ـ موسوعة التراث الأخلاقي، ج١.

٢٣ ـ موسوعة التراث الأخلاقي، ج٢.

٢٤ـ موسوعة التراث الأخلاقي، ج٣.

٢٥ـ مبادئ الأخلاق في القرآن.

٢٦ـ الأخلاق الإسلامية.

٢٧ ـ أسس الأخلاق الإسلامية ومفاهيمها.

٢٨ـ المعجم الأخلاقي.

٢٩ ـ فقه الأخلاق، (مدخل إلى علم الأخلاق الاستنباطي والاجتهادي).

٣٠ ـ بحوث ملتقى الرواية الأول(تأليف مجموعة من الباحثين).

٣١.رسائل من غزة (مجموعة قصص قصيرة).

٣٢ـ بيوت العيوق (رواية).

٣٣ـ سحب القداسة(رواية).

٣٤ـ قرة عين (رواية).

٣٥ـ خير المتاع (رواية).

٣٦ـ مسبحة أمي (رواية).

٣٧ـ ترنيمة طائر الجنة (رواية).